كلية الكوت الجامعة
مركز البحوث والدراسات والنشر

الحضارة الاسلامية في القرن الثاني الهجري

(دراسات)

د. علي زوين

منشورات

مركز البحوث والدراسات والنشر

كلية الكوت الجامعة

٩ / ٨١٠

ز ٩٩٩ زوين، علي

الحضارة الاسلامية في القرن الثاني الهجري/ علي زوين. - ط١. - بغداد: مطبعة الرفاه، ٢٠٢٢

٢٠٦ ص؛ ٢٤ سم

١. الادب العربي - تاريخ. أ. العنوان .

م. و.

٢٠٢٢ /٢٤٥٢

رقم التصنيف الدولي ISBN:978-9922-685-00-7

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٢٤٥٢ لسنة ٢٠٢٢م

مطبعة الرفاه

07902823204

مقدمـــــة

البحث الحضاري من الدراسات المفيدة التي تكشف عن جوانب مختلفة متفاوتة لحضارة من الحضارات عبر مراحل تطورها، وزيادة أهميتها أو نقصانها، وتأثيرها وتأثرها، ومن ثم قيمتها بين الحضارات.

ويمثل البحث في تأريخ الحضارة الإسلامية جانباً مهماً من جوانب تأريخ الحضارات العام . ولما كانت البذرة الأولى للحضارة الإسلامية قد وضعت مع البعثة المحمدية ونزول القرآن الكريم فإن للقرنين الأول والثاني الهجريين أهمية مخصوصة ومرتبة فوق كل المراتب في بيان سير الحضارة الإسلامية في القرون التالية .

إن البذرة التي نبتت في القرن الأول الهجري أخذت تنمو لتصبح شجرة في القرن الثاني الهجري وبدأت تعطي أُكلها ثم امتدت جذورها في القرن الثالث ورسخت في القرن الرابع وأعطت ثمراً ناضجاً واكتملت نمواً . ولذلك عدّ معظم الباحثين ومن بينهم المستشرق آدم متز – القرن الرابع الهجري عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، ولكن هذا الازدهار الذي وصفوه كان له أسس وجذور نلاحظها على نحو واضح في القرن الثاني الهجري إذ بدأت الدراسات في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفقه وتفرعت منها الدراسات اللغوية والتاريخية ومجمل المعارف القديمة كأيام العرب وأخبارها وأنسابها وعاداتها وتقاليدها ثم ارتبط ذلك كله بسبب أو بآخر بروافد من الحضارات الأخرى ونتجت عن هذا الارتباط دراسات في العلوم العقلية والعلوم الصرفة والتطبيقية وظهرت بواكير البحث المنطقي والفلسفي وفتحت الفلسفة أبواباً لعلوم الرياضيات كالحساب والعدد والهندسة والفلك وانتقلت المعارف الطبية إلى علم قائم على التجربة والتشريح والتعليل وصارت لها قوانين في العلاج والتشخيص وكانت ثمرة ذلك كله أن هيّأ القرن الثاني الهجري لمجمل تلك الدراسات سبلاً عملية لتتخذ فيما بعد مناهجها وأصولها وتكتمل مصطلحاتها .

هذا جانب من جوانب الحضارة. أما الجوانب الأخرى فنجدها في التنظيمات السياسية والإدارية والقضائية كالخلافة والوزارة والإمارة والقضاء وتقسيم الولايات والبريد والشرطة والحِسْبة، وفي التنظيمات الاقتصادية والعمرانية كالضرائب وواردات الدولة

وصـادراتها وبنـاء المـدن وطـرق المواصـلات وتنظـيم المـوانئ واسـتحداثها والعنايـة بالملاحـة النهريـة والسـفن البحريـة وبنـاء الـدور لصـناعتها وصـيانتها وإنشـاء المرافـق العامة وسوى ذلك من الأمور .

ولعل الجانب الإنساني يمثل منحىً مهماً من الحضارة الإسلامية في القرن الثاني الهجري فالحضارة في أيسر معانيها لا تعني تطوراً عقلياً ومادياً فقط وإنما هي كالمرآة العاكسة لنشاط الإنسان في مختلف الميادين، لذلك فالقضايا المتعلقة بالعادات والتقاليد والأعراف والمأكل والمشرب والملبس وما أشبهها لها ارتباط وثيق بالدرس الحضاري ، وقد ألمحنا إلى طرق من ذلك في دراستنا.

وكان المنهج الذي اتبعناه في هذه الدراسة المختصرة هو استقراء للنصوص في مصادرها ومحاولة إعطاء ابعاد معينة لسير الحضارة في القرن الثاني الهجري من خلال النصوص وتحليلها قدر الإمكان وبحسب أهميتها في الكشف عن جوانب جديدة أو مستجدة؛ فالدراسة في مجملها عبارة عن ملاحظات وتفسيرات مقتضبة لا تشمل كل الأبعاد الحضارية في القرن الثاني الهجري. واكتفيت بتدوين ما هو ضمن الفترة الزمنية ولم أوطئ لبيان تطور المعلمة الحضارية الواحدة سابقاً ولاحقاً

أما المصادر التي اعتمدتها في البحث فمعظمها قديمة ولاحظت تدرجها الزمني من حيث الاستفادة منها، وحاولت أن أرجع البحث في موضوع معين إلى مصادره الأصيلة المخصوصة به، فالبحث في جوانب العلوم الحكمية – مثلاً – أرجعته إلى القفطي أما البحث في تاريخ الطب والتأليف فيه فمرجعه أساسا إلى أبن أبي أصيبعة ... وهكذا باقي المصادر الأخرى .

ولعلي أسهمت في دراستي المتواضعة هذه في الكشف عن بعض المظاهر من حضارتنا الإسلامية . وأسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى والصواب في القول مقروناً بحسن العمل.

فهرس المحتويات

الموضــوع	الصفحة
الفصل الأول : (التنظيمات السياسية والقضائية)	٥ـ١٦
الوزارة	٧
القضاء	١٢
نظم سياسية وعسكرية	١٤
الفصل الثاني: (التنظيمات الإدارية والموارد المالية)	١٧ـ ٣٢
الولايات الإسلامية	١٨
الدواوين	٢٠
البريد	٢١
العملة	٢٢
موارد الدولة	٢٤
الفصل الثالث : (مظاهر من الحياة الاقتصادية)	٣٣ـ٤٦
الفصل الرابع : (بناء المدن والمشاريع العمرانية)	٤٧ـ٦٢
المساجد والجوامع	٤٨
بناء مدينة بغداد	٥٣
الدور والقصور	٥٩
المدن والثغور	٦٠
الفصل الخامس : (العلوم الدينيــة)	٦٣ـ٨٢
التعليم وتدوين العلوم	٦٤
علوم القرآن والقراءات	٦٧
الحديث	٧٠
الفقه	٧٢
الفصل السادس : (اللغة والأدب)	٨٣ـ١١٤
اللغة	٨٤

الموضــوع	الصفحة
الأدب	٩٧
الفصل السابع :(الخط والكتابة)	١٠٥ـ١٢٦
الفصل الثامن : (الاخبار والاخباريون)	١٢٧ـ١٣٦
الفصل التاسع: (الترجمة والنقل)	١٣٧ـ١٤٨
الفصل العاشر: (المذاهب العقلية)	١٤٩ـ١٦٢
الفصل الحادي عشر : (الطب)	١٦٣ـ١٧٤
الفصل الثاني عشر : (الموسيقى والفلك)	١٧٥ـ١٨٨
الفصل الثالث عشر : (طرق المواصلات – مظاهر من الحياة الاجتماعية والحضارة المادية)	١٨٩ـ 206
طرق المواصلات والملاحة النهرية	١٩٠
الالعاب ووسائل التسلية	١٩٣
مظاهر من الحياة الاجتماعية	١٩٧
مظاهر من الحضارة المادية	٢٠٢
المصادر والمراجع	٢٠٧ـ٢١٢

الفصل الاول
التنظيمات السياسية والقضائية

الـــــــــوزارة

الوزارة من التنظيمات السياسية المهمة في الخلافة الإسلامية، وقد بوشرت منذ عهد مبكر في خلافة الراشدين وان كانت كلمة (وزير) بالمعنى الاصطلاحي قد ظهرت في مطلع العصر العباسي وتحددت وظائفه الأساسية، وكانت الوزارة بمفهومها العام في خلافة الراشدين لا تتعدى المشاورة في الأمور واستصواب بعض الآراء دون تعيين شخص يقوم بهذه المهمة، وقد شجع على ذلك ورود كلمة الوزير في القرآن الكريم بمعنى المُعِين[١].

وفي الدولة الأموية باشر الكاتب مهمة الوزير، وعلل بعض المؤرخين لذلك بأن بني أمية كانت تنكر "أن تخاطب كاتباً لها بالوزارة وتقول الوزير مشتق من المؤازرة ، والخليفة أجل من أن يحتاج إلى المؤازرة"[٢].

ويمكن القول بأن كلمة (كاتب) في العصر الأموي كانت ترادف كلمة (وزير) بالمعنى الاصطلاحي، وقد استعملت كلمة (مشير) قبل

---

[١] معجم ألفاظ القرآن الكريم، ووردت لفظة (وزير) في موضعين من القرآن : طه/آية٢٩ ، الفرقان/آية٣٥ .

[٢] المسعودي : التنبيه والاشراف ٢٩٤ .

العصر العباسي للدلالة على هذا المعنى أيضا[١]. وفي بداية العصر العباسي استحدث منصب الوزارة وتقررت قواعدها وقوانينها، وأول من أطلق عليه كلمة (الوزير) بالمعنى المخصوص هو أبو سلمة الخلال حفص بن سليمان استوزره السفاح وفوض الأمور إليه ولقب (وزير آل محمد)[٢] كما لقب أبو مسلم صاحب الدعوة (أمين آل محمد)[٣].

وتقررت بعض الصفات العامة لانتخاب الوزير فلم يكن الخلفاء تستوزر "الا الكامل من كتابها، والأمين العفيف من خاصتها، والناصح الصدوق من رجالها، ومن تأمنه على أسرارها وأموالها، وتثق بحزمه وفضل رأيه وصحة تدبيره في أمورها[٤].

أما الدولة الأموية في الأندلس فلم تستعمل اسم الوزير في بادئ الأمر بل أفردت لكل عمل من يقوم به، وكان الذي يقوم بأمر هؤلاء جميعا وينفرد بالدخول على السلطان متى شاء هو الحاجب، وقد أشار ابن خلدون إلى مهمات الوزراء وكيفية تنظيم علاقتهم بالحاجب الذي هو الواصلة فيما بينهم وبين الخليفة بقوله "وأما دولة بني أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافا وافردوا لكل صنف وزيرا، فجعلوا لحسبان المال وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً

---

[١] انظر ابن الطقطقا : الفخري في الآداب السلطانية : ١٥٣ .

[٢] الطبري : تأريخ الرسل والملوك : ٤٥٠/٧ ، والفخري/١٥٣ .

[٣] تأريخ الرسل والملوك : ٤٥٠/٧ .

[٤] التنبيه والأشراف : ٢٩٤ .

وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً ؛ وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم..."[1]. وبذلك يمكن أن نستنتج أن (الحجابة) في المغرب العربي إبان حكم الأمويين في الأندلس ترادفها كلمة (الوزارة) في المشرق العربي، و (الحاجب) في مفهوم الأندلسيين هو الوزير عينه في مفهوم المشرقيين.

ولم تكن الوزارة في أول الأمر تفويضا مطلقا للوزراء وإنما كان الخليفة يشرف بنفسه على أعمالهم ، ويمتد نفوذ الوزير أو ينحسر تبعاً لضعف الخليفة أو قوته أو تبعاً لمدى تفرغ الخليفة للأعمال وربما يكون الخليفة قويا بالقدر الذي يستطيع به المباشرة ولكنه يترك ذلك لوزيره. وكان المنصور – مثلا – وهو ثاني خليفة عباسي من الذين لا يبالون كثيراً بمشورة الآخرين وإن شاورهم ؛ لذلك كان يباشر بنفسه صغائر الأمور فضلا عن جسامها وحين يشعر بان سلطات وزيره بدأت بالتوسع على حساب سلطانه ونفوذه عزل الوزير أو قتله واستبدل به شخصا آخر، وهذا ما فعله من قبل أخوه أبو العباس السفاح أيضا بأول وزير أطلق عليه هذا اللقب حتى "ان كل من استوزر بعد أبي سلمة كان يتجنب أن يسمى وزيراً

---

[1] ابن خلدون : المقدمة : ٢٦٣ .

تطيراً مما جرى على أبي سلمة ... وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً"[١].

ونتيجة لهذا التفاوت في نفوذ الوزراء وسلطاتهم انقسمت الوزارة من حيث قوة الوزير أو ضعفه على قسمين: وزارة تنفيذ "وهي حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه"، ووزارة تفويض "وهي حال ما يكون الوزير مستبداً عليه"[٢]. وفي كلا النوعين كان الوزير يباشر جميع الأمور وجعل له "النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج اليه خطته من قسم الأعطيات في الجند، فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه، وأضيف إليه النظر فيه، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور . وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ودفع اليه ، فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة..."[٣]. وظلت الوزارة في خلافة أبي جعفر المنصور تابعة لسلطة الخليفة، وبلغ ضعف الوزراء أمام الخليفة حداً كانوا يتجنبون فيه ألفاظا مثل الشقاق والخلاف مبالغة في الحذر منه أو خشية أن يفهم كلامهم على عكس ما يعنون، ومن ذلك ما يروى عن المنصور من أنه رأى يوماً في بستانه شجيرة من هنا إلى شجر الخلاف فلم

---

[١] الفخري : ١٥٦ .

[٢] المقدمة : ٢٦٢ .

[٣] المقدمة : ٢٦١ .

يدر ما هي، فقال لوزيره الربيع ما هذه الشجرة ؟ فقال الربيع : اجماع ووفاق "وكره أن يقال خلاف . فاستعمله المنصور واستحسن قوله"[١].

وبدأت سلطة الوزير تزداد في عهد المهدي وظهر ذلك جلياً في وزارة أبي عبيد الله معاوية بن يسار "فإنه جمع له حاصل المملكة ورتب الديوان وقرّر القواعد"[٢].

واتسع نفوذ الوزراء على نحو واضح في عهد الرشيد وفوض البرامكة أمر الوزارة وأطلق يدهم فيها حتى قال ليحيى بن خالد حينما فوضه الوزارة : "قد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي اليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، وامض الأمور على ما ترى. ودفع اليه خاتمه[٣] والعبارة الأخيرة إشارة واضحة إلى التفويض الكامل. ونفوذ البرامكة أيام الرشيد واضح للمطلع على تلك الحقبة من الدولة العباسية وكان الرشيد يجل يحيى ولا يمضي في رأي إلا بعد مشاورته فيه، ولم ينقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر الا بعد مشاورة يحيى والطلب اليه أن يكتب إلى جعفر بهذا المعنى معللاً ذلك بالاستحياء من مكاتبته[٤].

---

[١] الفخري : ١٧٨ .

[٢] الفخري : ١٨١ .

[٣] تأريخ الرسل والملوك : ٢٣٣/٨ .

[٤] الفخري : ٢٠٥ .

ولم يكن جعفر بأقل من أبيه حتى دعي بالسلطان[١]. وهذه الإشارة من الإشارات المبكرة التي وردت فيها كلمة (السلطان) بمدلول سياسي يفيد تفويض الحكم وإطلاقه لمن هو دون الخليفة. وكان الناس يسمون الفضل بن يحيى (الوزير الصغير)، ثم أطلقت التسمية ذاتها على أخيه جعفر بعد أن جعل اليه أمر دار الرشيد[٢].

وحصل تطور جدير بالتأمل في عهد المأمون هو ظهور لقب جديد يطلق على الوزير فقد استوزر المأمون الفضل بن سهل ولقبه (ذا الرياستين) ومعناه رئاسة الحرب ورئاسة التدبير. وهذا أول لقب يظهر للوزير يفيد معنى التفويض المطلق وهو دليل على نفوذ الوزراء الذين ابتدءوا منذ آواخر القرن الثاني الهجري يلتمسون ألقاباً رسمية لهم في تشريفات مخصوصة ، وهي بادرة خطيرة مؤداها اعتراف ضمني من الخلفاء بسلطة الوزراء. ونلاحظ ان المأمون قد منح اللقب المذكور آنفاً للفضل بن سهل في احتفال "وعقد له على سنان ذي شعبتين، وأعطاه مع العقد علماً قد كتب عليه لقبه، فحمل العقد علي بن هشام وحمل العلم نعيم بن حازم"[٣].

---

[١] المقدمة : ٢٦٢ .

[٢] الفخري : ٢٠٥ .

[٣] الجهشياري : الوزراء والكتاب ٣٠٥ .

القـضـــاء

منصب القضاء من المناصب التي ظهرت مبكراً في تاريخ الخلافة؛ فمن أوائل القضاة الذين قضوا بالمدينة عبد الله بن نوفل وينتهي نسبه إلى عبد المطلب. وكان سلمان بن ربيعة من أوائل القضاة بالعراق وقد قضى بالمدائن، ومثله أبو قرة الكندي الذي قضى بالكوفة ثم استقضى عمر بن الخطاب شريح بن الحرث الكندي بعده فقضى بها خمساً وسبعين سنة. واستقضى عمر على البصرة كعب بن سوار الأزدي ويعد من أوائل القضاة بها[١].

وباشر الخلفاء في صدر الإسلام القضاء بأنفسهم أو جعلوه لبعض أصحابهم ممن يثقون به . وغلب على بني أمية ترك القضاة لغيرهم. وكذلك فعل العباسيون الا أن بعضهم كانت له مجالس للقضاء في القرن الثاني الهجري عرفت بـ(ردّ المظالم). وممن عني بذلك المهدي الذي كان يجلس للمظالم في كل وقت وبلغ مدى اهتمامه بذلك أن قال "ادخلوا علي القضاة فلو لم يكن ردي للمظالم الا للحياء منهم لكفى"[٢]. ولما قدم المأمون بغداد جلس للمظالم كل يوم أحد الى الظهر[٣].

أما عن تفويض القضاء لمن يتولى ذلك عن الخلفاء فقد كان المألوف في القرن الثاني الهجري سواء عند الأمويين أو العباسيين، فقد استقضى ابو العباس السفاح ربيعة بن أبي عبد الرحمن على الأنبار

---

[١] ابن قتيبة : المعارف ٢٤٣ .

[٢] الفخري : ١٧٩ .

[٣] السيوطي : تأريخ الخلفاء : ٣٢٤ .

مدينته. وربيعة هذا هو المعروف بربيعة صاحب الرأي وتوفي بالانبار سنة ١٣٦هـ[١]. وكان محمد بن عبد الرحمن من القضاة المخضرمين، فقد تولى القضاء لبني أمية ثم لبني العباس وتوفي سنة ١٤٨هـ فجعل المنصور ابن اخيه مكانه[٢]. واستدعى ابن هبيرة أبا حنيفة للقضاء للأمويين ولما رفض أمر به فضرب أياماً كل يوم عشرة اسواط[٣]. وحدث تطور جديد في التنظيمات القضائية في صدر الدولة العباسية وذلك باستحداث منصب (قاضي القضاة) الذي يتولى تعيين القضاة على الامصار والإشراف عليهم ويكون مقره في العاصمة وأول من أسندت إليه هذه الوظيفة هو ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم الكوفي[٤]. ويعرف بأبي يوسف القاضي . وكان أبو يوسف من المُحِّدثين ثم لزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأي وولي قضاء بغداد إلى ان مات سنة ١٨٢هـ في خلافة هارون[٥]. وتولى محمد بن الحسن الفقيه قضاء الرقة لهارون وكان في أول أمره من المُحِّدثين وطلب الحديث وسمع من مسعد ومالك بن مغول وعمر بن ذر الأوزاعي والثوري، ثم جالس أبا حنيفة وسمع منه الحديث والرأي . وتوفي بصحبة الرشيد بالري

---

[١] المعارف : ٢١٧ .

[٢] المعارف : ٢١٦ .

[٣] المعارف : ٢١٦ .

[٤] ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٢٩٨/١ .

[٥] المعارف : ٢١٨ .

سنة ١٨٩هـ[١]. وولى المأمون الواقدي وهو محمد بن عمر بن واقد القضاء بعسكر المهدي أربع سنين وتوفي على القضاء سنة ٢٠٧هـ[٢].

نظم سياسية وعسكرية

من الوظائف المتعلقة بتنظيم العلاقات العامة للخليفة ما عرف بالحجابة وأصل الكلمة من الحَجْب أي المنع إلّا أنها أصبحت سمة لمن "يحجب السلطات عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته"[٣]، واستعملت بهذا المدلول في القرن الثاني الهجري ولكنها دلت في التنظيمات السياسية والإدارية للدولة الأموية بالأندلس على معنى الوزير أو الذي يشرف على الوزراء كما أشرنا الى ذلك سابقاً "فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم..." [٤]. واتخذ كل من المنصور والمهدي والهادي والرشيد حاجباً بالمدلول الأول فقد كان الفضل حاجباً لهم ولما نكب الرشيد البرامكة استوزره بعدهم[٥].

وكانت الشرطة من الوظائف المرتبطة بالسلطة التنفيذية ، وهي وظيفة "مرؤوسة لصاحب السيف في الدولة" كما عبر عنها ابن خلدون[٦].

---

[١] المعارف : ٢١٩ .

[٢] المعارف : ٢٢٦ .

[٣] المقدمة ٢٦٣ .

[٤] المقدمة : ٢٦٣ .

[٥] الفخري : ٢١١ .

[٦] المقدمة : ٢٧٥ .

ويسمى متقلدها (صاحب الشرطة)، وكانت صلاحياته في الدولة العباسية تقتصر على تنفيذ الأحكام الصادرة بحق المجرمين التي تسمى اصطلاحا (الحدود)، وربما زاد نفوذه وأصدر الأحكام بنفسه فيكون بذلك جامعا بين السلطتين القضائية والتنفيذية، غير أن أحكامهم لم تكن نافذة في جميع الناس بل اقتصرت على العامة من الدهماء "وأهل الريب والضرب على أيدي الرعاع والفجرة"[١]. ودرج العباسيون على تقليد هذه الوظيفة كبار قوادهم والخاصة من مواليهم. أما في الدولة الأموية بالاندلس فقد ازدادت أهميتها وعظم خطرها وقسمت على قسمين: شرطة كبرى، وشرطة صغرى. صاحب الكبرى له عموم النظر في الطبقات العليا والمتنفذين في الدولة باختلاف مناصبهم ولاسيما ما تعلق بالظلامات. وصاحب الصغرى له النظر في العامة من الناس . ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب السلطان ورجال يتبوؤن المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها الا في تصريفه . وبلغت أهمية هذه الوظيفة في الأندلس مبلغاً كبيراً وكانت ترشيحاً للوزارة والحجابة[٢].

أما التنظيمات العسكرية فقد شهد القرن الثاني الهجري بعض التطورات والتحولات في أعطيات الجند وتقسيماتهم والرتب العسكرية واستعمال الأسلحة الثقيلة في الحروب الداخلية ويذكر عن السبب الذي من أجله سمي يزيد بن الوليد بن عبد الملك بالناقص أنه نقص الزيادة التي زادها الوليد من قبله في أعطيات الجند[٣]. ونلاحظ أن المنجنيقات – وهي

---

[١] المقدمة : ٢٧٦ .

[٢] المقدمة : ٢٧٦ .

[٣] ابن العبدي: تأريخ مختصر الدول : ١١٨ .

من الأسلحة الثقيلة التي تستعمل عادة في فتح القلاع والحصون – قد استعملت بكثرة في حصار بغداد بين الأمين والمأمون[١]. ويستفاد من بعض الأخبار الواردة في حصار بغداد أن العّيارين – وهم طبقة اجتماعية نشأت في القرن الثاني الهجري وناصرت الأمين في الحرب الأهلية – قد عرفوا تنظيمات ورتباً عسكرية وهؤلاء يمكن جعلهم من المقاتلين الأهليين، وعلى سبيل المثال كان على كل عشرة منهم عريف ، وكل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواعد أمير[٢]. ومن المرجح أن هذا الترتيب قد اقتبس من الجيش النظامي.

وعرف الجيش في القرن الثاني الهجري ما ندعوه اليوم بالعرض العسكري، وهناك وصف لاستعراض جرى أمام المنصور، وفيه "عرض المنصور جنده في السلاح والخيل على عينه في مجلس اتخذه على شط دجلة دون قُطْرَبّل وأمر أهل بيته وقرابته وصحابته يومئذ بلبس السلاح، وخرج وهو لابس درعاً وقلنسوة تحت بَيْضَة سوداء لاطئة مُضرّبة..."[٣]. وجرى شيء شبيه بذلك في خلافة الهادي، وقلده عماله أيضاً في عرض ما لديهم من الجند. وكان الجند يعرضون بين يدي الخليفة بالسيوف المرهفة والأعمدة والقسيّ الموترة[٤].

---

[١] المسعودي: مروج الذهب ٣/٤١١ ، ٤١٢ .

[٢] مروج الذهب : ٣/٤١١ .

[٣] تأريخ الرسل والملوك : ٨/٥٢ .

[٤] تأريخ الخلفاء : ٢٨٠ .

الفصل الثاني

التنظيمات الادارية

والموارد المالية

الولايـــات الإســـلامية

توزعت الدولة ولايات ضمن تقسيمات إدارية. وكان الخليفة يختار من يرى فيهم الكفاية لإدارة الولايات والنظر في شؤونها المختلفة. وهذا الشخص يطلق عليه اسم (العامل) أو (الوالي) وأن كان الشائع هو التسمية الأولى .

ومن الملاحظ انه كان يختار للإقليم الواحد عاملان أحدهما : على الصلاة والحرب وتصح عليه كلمة (عامل) اذا اطلقت . والآخر: للخراج ويعنى بالشؤون المالية وجباية الضرائب وتصح عليه كلمة (والي) وجمعها (ولاة). مثال ذلك ولاية خراسان في عهد عمر بن عبد العزيز فأن عامليها كانا إلى آخر سنة ١٠٠هـ عبد الرحمن بن نعيم على الصلاة والحرب، وعبد الرحمن بن عبد الله على الخراج[١]. وظهرت فكرة جديدة في تولية العمال هي توليتهم على انتخاب أهل البلد ، وهذه الفكرة ليست نتيجة اقتراح من الخليفة وإنما جاءت من رجال المرتبة الثانية في الحكم وربما كانت فكرة فردية – إذا صح التعبير – لأننا لم نجد شياعاً لها . ويشير الطبري في حوادث سنة ١٠٦هـ إلى أن عمر بن هبيرة قال لمسلم بن سعيد حين ولاه خراسان: "... وعليك بعمال العُذْر . قال : وما عمال العُذْر ؟ قال : مُرْ أهل كل بلد أن يختاروا لأنفسهم ، فإذا اختاروا رجلاً فَولّه، فان كان خيراً كان لك، وان كان شراً كان لهم دونك ؛ وكنت معذوراً"[٢]. وهذا الخبر يفيدنا شيئاً آخر هو أن بعض عمال الولايات الأساسية في الدولة كان لهم

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ٥٦٣/٦ .

[٢] تأريخ الرسل والملوك : ٣٥/٧ .

تفويض من الخليفة لاختيار عمال لولايات أخرى محددة ضمن التفويض. وكانت (الثغور) – وهي كلمة تطلق على حدود الدولة – متصلة بالجزيرة وقِنّسرين على أطراف حدود الدولة البيزنطية. وفي سنة ١٧٠هـ عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقِنّسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت (العواصم)[١]، وبذلك تستعمل هذه الكلمة أول مرة بهذا المدلول الجديد.

أما عن تقسيم الولايات في القرن الثاني الهجري فلدينا بعض الأمثلة التي تظهر بوضوح عدم حصول تفاوت كبير في تقسيمها بين الدولتين الأموية والعباسية ؛ فالولايات في خلافة عمر بن عبد العزيز كانت على النحو الآتي[٢]: ١.البصرة ٢.الكوفة ٣.خراسان ٤.سجستان ٥.السند ٦.البحران ٧.عُمان ٨.اليمامة ٩.مكة ١٠.المدينة ١١.اليمن ١٢.الجزيرة واذربيجان ١٣أرمينية ١٤.دمشق ١٥.الاردن ١٦.فلسطين ١٧.حمص ١٨.قنسرين ١٩.البلقاء ٢٠.مصر ٢١.إفريقية.

وفي خلافة أبي جعفر المنصور كانت بعض الولايات على النحو الآتي[٣]:

١.المدينة ٢.مكة ٣.اليمن ٤.البصرة ٥.الكوفة ٦.خراسان ٧.سجستان ٨.السند ٩.البحران ١٠.اليمامة ١١.الجزيرة ١٢.إفريقية .

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ٢٣٤/٨ وقارن بمآثر الإنافة ١٩٧/١ إذ ذكر أن ذلك حدث عام ١٩٠هـ .

[٢] انظر : تاريخ خليفة بن خياط من ص٤٦٣ إلى ص٤٦٦ .

[٣] تاريخ خليفة بن خياط : من ص٦٧٢ إلى ص٦٧٩ .

الـــدواويـــن

بقيت الدواوين التي استحدثت في خلافة الراشدين معمولا بها في الدولة الأموية ووسعت واضيفت اليها دواوين جديدة . وظل هذا التوسع والتجديد قائماً في العصر العباسي . وتطلق كلمة (الديوان) على سجل كبير يحتوي على تفاصيل الدخل والخرج. ولما كانت مجموعة من الكتاب تقوم على تنظيم هذا السجل أطلقت الكلمة على مكان جلوسهم أيضا[١]، فديوان الأعمال والجبابات– على سبيل المثال – كان عبارة عن سجل كبير تحفظ فيه حقوق الدولة "وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أُعطياتهم في إبّاناتها والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قَوَمة تلك الأعمال وقهارمة الدولة"[٢]. واستحدثت في خلافة المهدي دواوين جديدة عرفت بدواوين الأزمّة، ووظيفتها الإشراف على سائر الدواوين الأخرى وضبطها. وينسب عمل ذلك إلى عمر بن بزيغ. ثم استحدث ديوان يشرف على دواوين الأزمّة وسمي بديوان زِمام الأزمّة، وفي سنة ١٦٨هـ ولى المهدي علي بن يقطين ديوان زِمام الأزمة على عمر بن بزيغ[٣].

ويعد ديوان الرسائل من الدواوين المهمة في التنظيمات الإدارية للدولة وفيه تنظم الرسائل الصادرة من مقر الخلافة إلى مختلف الولايات بما تحمل فيها من الأوامر والنواهي والعزل والتنصيب والرسائل المخصوصة ذات الطابع السري.. الخ . وفي سنة ١٦١هـ استحدث

---

[١] المقدمة : ٢٦٧ .

[٢] المقدمة : ٢٦٦ .

[٣] تأريخ الرسل والملوك : ١٦٧/٨ .

المهدي وظيفة الأمناء. وهي وظيفة غرضها التأكد من وصول الرسائل وتنفيذ محتواها. وتولى يعقوب بن داود وزير الخليفة بتوجيه الأمناء إلى جميع الأفاق "فكان لا ينفذ للمهدي كتاب إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب بن داود إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك"[١]، ومن جملة الدواوين الأساسية في سنة ١٩٢هـ وهي سنة وفاة الرشيد[٢]: ديوان النفقات وتدبير الأمور، وديوان الرسائل ، وديوان السرّ ، وديوان الضِّياع، وديوان الصوافي، وديوان الجند، وديوان الخراج . وكانت الدواوين تثبت في صحف، فجعلها خالد بن برمك في دفاتر[٣] وهو تطور له أهميته في تنظيم السجلات وحفظها عن التلف والضياع.

البريد

توسعت خطوط البريد في القرن الثاني الهجري لاتساع رقعة الدولة . ووضع البريد لنقل الكتب والرسائل من عاصمة الخلافة الى الأقاليم والولايات التابعة لها أو العكس وكان مخصوصاً بالخليفة والوزراء والقواد والولاة وذوي الرتب والنفوذ في الدولة. ولما كانت واسطة البريد هي الجياد والبغال والإبل اتضح لنا السبب في نقل بعض البضائع مع البريد. وفي سنة ١٦٦هـ أمر المهدي بأحداث خط بريدي بين مكة والمدينة واليمن بينهما وبين العاصمة بغداد[٤]، وكان ذلك أول ارتباط بريدي بين الحجاز

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ١٣٦/٨.

[٢] انظر : الوزراء والكتاب ٢٧٧ .

[٣] الوزراء والكتاب : ٨٩ .

[٤] تأريخ الرسل والملوك : ١٦٢/٨ ، وتاريخ الخلفاء : ٢٧٣ .

والعراق، واتخذ من البغال والإبل – التي تتحمل عناء السفر في الصحراء – وسائط للنقل. وهناك إشارة أوردها ابن قتيبة في الكتاب المنسوب إليه[١] تفيد أن الحَمَام كان يستعمل في البريد في خلافة الرشيد ويصف لنا كيفية استعمال الحَمَام لهذا الغرض على النحو الآتي : "يعلق الكتاب في جناحيه فيرتفع في الجو ارتفاعاً يغيب شخصه عمن في الأرض، ينقضّ على وطنه وموضع فراخه، فإذا نزل لا يستقر نزوله حتى يؤخذ الكتاب من جناحه فيجاوب بما أحب ثم يُسّرح غيره...".

العـمـلة

اصطلح على العملة في تاريخ الحضارة الإسلامية بالسكّة "وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة"[٢]. وكلمة السكة كانت تطلق في أول الأمر على الختم الذي يتخذ من الحديد، ثم انتقل إلى النقش وهي صور الدراهم والدنانير، ثم توسع مدلولها وأخذت تطلق على مجموع العمل المتعلق بذلك[٣]. وكان الذهب والفضة من أكثر المعادن المستعملة في سك النقود، وانصبت العناية على الذهب لجودة معدنه وغلاء ثمنه وإقبال الناس عليه، وتكونت خبرة لدى الصيارفة والمتعارفين عليه لاختبار جيده وتمييزه

---

[١] ابن قتيبة : الإمامة والسياسة : ١٩٣/٢ .

[٢] المقدمة : ٢٨٦ .

[٣] المقدمة : ٢٨٦ .

من الرديء ووصف الذهب الجيد سبيكه وغير سبيكه بـ"أن يكون كنار خامدة وشعاع مركوم وكبريت قانئ .."[1]، وكانت الدنانير تختبر بعتقها ولونها الأحمر المائل إلى الخضرة، ويمتحن الدينار الجيد بلصوقه بالشعر واللحية وصعوبة استمراره فيهما. والدينار البهرج – وهو الزيف الرديء – يعتبر بخفة ثقله. أما الدراهم – التي كانت تتخذ من الفضة – فتمتحن بلونها وجرسها فالدرهم الزيف ما كان لونه مالحا وجرسه فيه طنين، والدرهم المتخذ من الفضة الجيدة ما كان طنينه صافيا[2].

وظهرت أنواع من النقود في القرن الثاني الهجري ، ولكن الدينار والدرهم بقيا يمثلان الوحدتين الكبرى والصغرى للنظام النقدي. وكان الاختلاف غالبا في الوزن أو العيار أو النقش والشكل. ومن الأنواع الجديدة التي ظهرت في هذه الفترة ما عرف بالدنانير والدراهم الرباعية. وهي دنانير ودراهم ضربها المأمون حين كان أميرا على خراسان سنة ١٩٣هـ وأمر الا يثبت فيها اسم أخيه الأمين . وكانت هذه الدراهم والدنانير لا تجوز أحيانا في المعاملات ، وأمر الأمين في سنة ١٩٥هـ بإسقاط ما ضرب منها[3] وهو إجراء آخر من جملة الإجراءات التي اتخذها ضد المأمون بعد خلعه من ولاية العهد .

---

[1] الجاحظ : التبصر بالتجارة ١١ .

[2] التبصر بالتجارة : ١١ .

[3] تأريخ الرسل والملوك : ٣٨٩/٨ .

مـوارد الدولـة

كانت الموارد الأساسية للدولة في القرن الثاني الهجري تتألف من الضرائب على اختلاف أنواعها من خراج وجزية ومكوس وعشور تنقل إلى مركز الخلافة أموالا عينية أو نقدية، يضاف إلى ذلك بعض الحاصلات الزراعية والمنتجات الحيوانية والصناعات اليدوية التي أنتجها الأهالي ويكون للدولة نصيب فيها. ويمكن أن ندخل ضمن ما تقدم الضرائب الشرعية التي فرضها الإسلام وأهمها الزكاة، والضرائب الوضعية التي التجأت إليها الدولة في بعض الاحيان لتفادي الأزمات الاقتصادية كالمكوس والعشور وخراج من أسلم من أهل الأرض وغيرها.

وكان خراج الأرض يمثل أكثر هذه الضرائب أهمية لاتساع رقعة الدولة ووفرة الأراضي الزراعية وتنوعها. واستدعى ذلك التوفر من الجباة ، كان الواحد منهم يدعى (عاملاً) ووظيفته جباية الخراج حين يحل موعده المقرر في السنة ويحمل ما يجبيه إلى (عامل) المقاطعة الذي يرسل الأموال إلى مركز الخلافة وتدون هناك في سجلاتها وتحفظ في الدواوين. ويحدث أحياناً أن يتصرف عامل الخراج بالأموال فيأخذ من صاحب الأرض أكثر مما يبعثه إلى مركز الخلافة وسمي ذلك (التقّبل) ففي حوادث سنة ١٢٠هـ عزل هشام بن عبد الملك خالد بن عبد الله ، وكان لخالد عامل يدعى فروخ فقيل إن من أسباب عزله أن فروخ تقّبل من ضياع هشام بموضع يقال له رستاق الرمّان أو نهر الرمان[١]. ولما ولي عمر بن عبد العزيز دأب على إلغاء ما يمكن الغاؤه من الضرائب غير الشرعية ، منها

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ١٤٢/٧.

ان الموالي كانوا يغزون مع الجيش بلا عطاء ولا رزق، وأن الخراج بقي مفروضاً على جماعة من أهل الذمة من الذين أسلموا، وكان والي خراسان حينذاك وهو الجراح بن عبد الله يغزي الموالي بلا عطاء ويجبي الخراج من أهل الذمة الذين أسلموا ؛ فعزله عمر وأسقط هذه الضريبة في عهده[١]. وألغى عمر بعض الضرائب الوضعية ومنها ما كان مفروضاً على بعض الولايات ، فقد ورد في كتابه الى عبد الحميد بشأن أهل الكوفة إلغاء أجور الضرّابين وهم الذين يحسبون الخراج ومقداره، وهدايا النوروز والمهرجان، وثمن الصحف التي تكتب فيها حسابات الخراج وغيره ويبدو أن كُتّاب الدواوين كانوا يتقاضونها، وأجور الفيُوج (جمع فَيْج وهو رسول السلطان الذي يسعى بالكتب) ، ودراهم النكاح ، وخراج من أسلم من أهل الأرض[٢].

وبحلول الدولة العباسية نلاحظ شيوع ظاهرة الضرائب الوضعية، ففي عهد المنصور أمر بعدّ دور أهل الكوفة وقسمة خمسة دراهم على كل دار فلما استكمل عددها فرض على كل دار أربعين درهماً[٣]. وفي خلافة المهدي فرض على أسواق الغَلّة ببغداد ضريبة تجبى في السنة، وفرض على كل حانوت مقداراً معيناً وأوكل أمر الجباية إلى بعض العمال يذكر منهم سعيد الحرثي[٤]، وقال ابن الجوزي[٥] أن ذلك حدث سنة ١٦٧هـ وهي أول إشارة إلى فرض الضرائب على أسواق العاصمة . ونظم أبو عبيد الله

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ٥٥٩/٦.

[٢] تأريخ الرسل والملوك : ٥٦٩/٦.

[٣] تاريخ مختصر الدول : ١٢٣ .

[٤] اليعقوبي : تأريخ اليعقوبي : ١٣٧/٣ .

[٥] مناقب بغداد : ١٤ .

معاوية بن يسار وزير المهدي الخراج ونقله إلى المقاسمة، وكان قبل ذلك يؤخذ عن الغَلاّت بالحد المقرر من غير مقاسمة ، وجعل الخراج على النخل والشجر، ويبدو أن هذا الوزير كان على دراية كافية أهلته لتأليف كتاب في الخراج على النخل ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده وقد سبق في عمله كلاً من أبي يوسف يعقوب بن ابراهيم المتوفى سنة ١٨٢هـ الذي صنف كتاباً في الخراج لهارون الرشيد، ويحيى بن آدم القرشي المتوفى سنة ٢٠٣هـ لذلك عده بعض المؤرخين[١] "أول من صنف كتاباً في الخراج وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتاب الخراج".

وسرت الرشوة بين عمال الضرائب والدواوين والأرزاق. وفي خلافة المهدي أمر برد نسب آل زياد بن أبيه إلى عبيد الثقفي، وإسقاطهم من ديوان قريش . إّلا أن بعد مدة ارتشى العمال من بني زياد وأعادوهم إلى ديوان قريش[٢].

وحاول المأمون – على الرغم من عنايته بالمعارف والعلوم والانصراف إليها – أن ينظم الضرائب . ويذكر بهذا الشأن مقاسمة أهل السواد بالخُمسين، وكانت المقاسمة المعهودة النصف[٣]. وكانت الفوضى السياسية من أكثر العوامل في اضطراب قوانين الضرائب وعدم قدرة الدولة على جبايتها. وربما أدى ذلك في فترات الحرب الأهلية بين الامين والمأمون إلى تسليط الرعاع وفرض رسوم وضرائب على الناس تؤخذ منهم قسراً. وفي حوادث سنة ٢٠١هـ كثر العّيارون ببغداد وأخذوا يشددون على

---

[١] الفخري : ١٨٢ .

[٢] الفخري : ١٨١ .

[٣] الفخري : ٢١٦ .

الناس ويسلبونهم أموالهم، فقام رجلان في بغداد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدعى أحدهما خالد الدريوش ، ويدعى الآخر سهل بن سلامة الأنصاري. ثم "ان سهلاً طاف ببغداد وأراضيها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبي المارة ... وقال : لا خفارة في الاسلام"[١]. والخفارة أن يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول : بستانك في خفري ادفع عنه من أراده بسوء ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهماً ؛ فيعطيه ذلك شاء أو أبى . ومن الواضح أن كلمة (الخفارة) اخذت من معنى الحراسة .

ومن الوثائق المهمة التي نقلها الجهشياري قائمة لما كان يحمل إلى بيت المال من المقاطعات وهذه القائمة مؤرخة بخلافة الرشيد ، وقد انتسخها الجهشياري من كتاب عمله أبو الفضل محمد بن أحمد بن عبد الحميد الكاتب في أخبار خلفاء بني العباس. وهي تنسب إلى كاتب من أهل مرو كان يتقلد ديوان المشرق للمهدي في ولاية عهده ثم كتب له في خلافته، وكتب أيضا لموسى ولهارون ، وعمل في أيام الرشيد تقديراً عرضه على يحيى بن خالد وزير الرشيد لما يحمل الى بيت المال بالحضرة (أي العاصمة) من جميع النواحي من المال والأمتعة. أما أبو الفضل محمد فقد حصل على هذه النسخة من أبي القاسم جعفر بن محمد بن حفص[٢]. وفيما يأتي جدول نبين فيه أسماء المقاطعات وما يرسل منها الى العاصمة من الأموال عيناً ونقداً. وهي أموال تجبى منها مرة واحدة في كل سنة :

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ٥٥٢/٨.

[٢] انظر : الوزراء والكتاب من ص٢٨١ الى ص٢٨٨ .

اسم المقاطعة	الأموال عيناً	الأموال نقداً	
		بالدراهم	بالدنانير
١.السـواد (أثمـان الغلات)	–	٨٠,٧٨٠,٠٠٠	
السـواد (أمـوال متفرقة)	الحلـل النجرانيـة: (٢٠٠) حلـة، الطين للختم : (٢٤٠) رطلاً.	١٤,٨٠٠,٠٠٠	
٢. كَسْكَر	–	١١,٦٠٠,٠٠٠	
٣.كور دجلة	–	٢٠,٨٠٠,٠٠٠	
٤.حُلْوان	–	٤,٨٠٠,٠٠٠	
٥.الأهواز	السكّر(٣٠,٠٠٠) رطل	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	
٦.فارس	مـاء الزبيـب الأسـود : (٢٠,٠٠٠) رطل الرمـان والسـفرجل:(٢٥٠,٠٠٠) (عدد الواحد منهما) مـاء الـورد:(٣٠,٠٠٠)قـارورة، الأنبجات (المـانجو) : (١٥,٠٠٠) رطل،الطين السيرافي (٥٠,٠٠٠) رطل،الزبيـب: بـالكر الهاشمي ثلاثة أكرار	٢٧,٠٠٠,٠٠٠	
٧. كرمان	المتـاع اليمنـي والخبيصـي [يلـدة بكرمـان] : (٥٠٠) ثـوب ، التمـر : (٢٠,٠٠٠) رطـل ، الكمّـون : (١٠٠) رطل .	٤,٢٠٠,٠٠٠	

اسم المقاطعة	الأموال عيناً	الأموال نقداً	
		بالدراهم	بالدنانير
٨. مَكْران	–	٤٠٠,٠٠٠	
٩.السند وما يليها	الطعام بالقفير الكَيْرخ (مليون) قفيز، الفيلة ثلاثة فيلة ، الثياب : (٢٠٠٠) ثوب ، الفوط : (٤٠٠٠) فوطة ، العود الهندي : (١٥٠) مناً ، ومن سائر أصناف العود : (١٥٠) منَاً، النعال : (٢٠٠٠) زوج وذلك سوى القرنفل والجوزبوا.	١١,٥٠٠,٠٠٠	
١٠.سجستان	الثياب المعيّنة : (٣٠٠) ثوب ، الفانيذ [ضرب من الحلواء] : (٢٠,٠٠٠) رطل	٤,٦٠٠,٠٠٠	
١١.خراسان	نُقّر الفضة ، بالأمناء : ألفا نقرة ، البراذين : (٤٠٠٠) برذون، الرقيق : (٢٠٠٠) رأس، المتاع: (٢٧,٠٠٠) ثوب ، الإهليلج: (٣٠٠) رطل.	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	
١٢.جرجان	الإبريسم : (١٠٠٠) من	١٢,٠٠٠,٠٠٠	
١٣.قُومَس	نُقّر الفضة: بالأمناء (١٠٠٠) نقرة ، الأكسية: (٧٠) كساء ، الرمان (٤٠,٠٠٠) رمانة	١,٥٠٠,٠٠٠	
١٤.طبرستان ، الرّويَان ، دُنْبَاوَنْد	الفرش الطبري: (٦٠٠) قطعة ، الأكسية: (٢٠٠) كساء ، الثياب: (٥٠٠) ثوب، المناديل (٣٠٠) منديل، الجامات: (٦٠٠) جامة.	٦,٣٠٠,٠٠٠	
١٥.الريّ	الرمان: (١٠٠,٠٠٠) رمانة،	١٢,٠٠٠	

اسم المقاطعة	الأموال عيناً	الأموال نقداً	
		بالدراهم	بالدنانير
	الخوخ: (١٠٠٠) رطل.		
١٦.أصفهان : سوى خمتش ورساتيق عيسى راديس.	العسل : (٢٠,٠٠٠) رطل ، الشمع : (٢٠,٠٠٠) رطل	١١,٠٠٠,٠٠٠	
١٧.همذان ودستبي	الرُّبّ والرمانين : (١٠٠٠) مناً ، العسل الأروندي (٢٠,٠٠٠) رطل.	١١,٨٠٠,٠٠٠	
١٨.ماها البصرة والكوفة	–	٢٠,٧٠٠,٠٠٠	
١٩.شهرزور وما يليها	–	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	
٢٠.الموصل وما يليها	العسل الأبيض : (٢٠,٠٠٠) رطل	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	
٢١.الجزيرة والديارات والفرات	–	٣٤,٠٠٠,٠٠٠	
٢٢.آذربيجان	–	٤,٠٠٠,٠٠٠	
٢٣.موقان وكّرْج	–	٣٠٠,٠٠٠	
٢٤.جيلان	البَزّ والطيلسان (–)، من العسل : (١٢) زِقاً، من البزاة : (١٠) بزاة ، من الأكسية : (٢٠) كساء.	–	
٢٥.أرمينية	البُسُط المحفورة: (٢٠) بساطاً ، الرُّقُم: (٥٨٠) قطعة ، المالح المنبوذ ما هي [السمك المجفف]: (١٠,٠٠٠) رطل ، الطريخ: (١٠,٠٠٠) رطل ، البزاة (٣٠) بازياً، البغال: (٢٠٠) بغل.	١٣,٠٠٠,٠٠٠	
٢٦.قنّسرين والعواصم	–		٤٩٠,٠٠٠

اسم المقاطعة	الأموال عيناً	الأموال نقداً	
		بالدراهم	بالدنانير
٢٧.حمص	الزبيب : ألف راحلة		٣٢٠,٠٠٠
٢٨.دمشق	–		٤٢٠,٠٠٠
٢٩.الأردنّ	–		٩٦,٠٠٠
٣٠.فلسطين	من جمع أجناد الشام من الزبيب : (٣٠٠,٠٠٠) رطل		٣٢٠,٠٠٠
٣١.مصر سوى تنّيس ودمياط والأشمون فان هذه وقفت للنفقات.	–		١,٩٢٠,٠٠٠
٣٢.بَرْقة	–	١,٠٠٠,٠٠٠	
٣٣.إفريقية	من البسط : (١٢٠) بساطاً	١٣,٠٠٠,٠٠٠	
٣٤.اليمن	سوى الثياب		٨٧٠,٠٠٠
٣٥.مكة والمدينة	–		٣٠٠,٠٠٠

ونستنتج من قائمة الجهشياري الأمور الآتية :

١. كثرة موارد الدولة في القرن الثاني الهجري وفي خلافة الرشيد خاصة وهو الأمر الذي يبرر لنا المبالغة في البذخ والإسراف اللذين نلاحظهما عند الخلفاء ومقربيهم.

٢. ترتب المقاطعات من حيث كثرة مواردها النقدية للدولة على حسب تسلسلها في الجدول المتقدم على النحو الآتي[١]: ٣٠، ٣١، ٢١، ١١،

[١] حولنا موارد المقاطعات المذكورة بالدنانير الى دراهم باعتبار ان الدينار يساوي (٢٢) درهماً كما ورد في نهاية القائمة . انظر الوزراء والكتاب ص٢٨٨.

٦، ٥، ١٩، ٢٠، ٣، ١٨، ٣٤، ٢٥، ٣٣، ١٢، ١٥، ١٧، ٢، ٩، ١٦، ٢٦، ٢٨، ٢٧، ٣٠، ٣٥، ١٤، ٤، ١٠، ٧، ٨، ٢٢، ٢٩، ١٣، ٣٢، ٢٣.

٣. مقاطعة جيلان وهي المرقمة في الجدول بـ(٢٤) لم تذكر لها موارد نقدية وربما سقط ذلك سهواً من الناسخ .

٤. أما الموارد العينية فيمكن تصنيفها إلى الأنواع الآتية:

أ. **الثياب والأنسجة:** الحلل، الفوط، الثياب على اختلاف انواعها، الإبريسم، الأكسية ، الفُرُش ، المناديل، البَزّوالطليسان، البُسُط المحفورة، الرُّقُم (ضرب من النسيج) .

ب. **المواد الغذائية:** الطعام بأختلاف انواعه ، الفانيذ (ضرب من الحلواء)،العسل، الأسماك المجففة ، ماء الزبيب الأسود ، ماء الورد .

ج. **الفاكهة والثمار:** الرمان والسفرجل، الأنبجات (المانجو)، الزبيب ، التمر، الخوخ، الرُّبّ (خلاصة عصير بعض الفواكه) .

د. **المواد الطبية:** العود الهندي ، الكمّون ، الإهليلج .

هـ. **الحيوانات والدواب:** الفيلة ، البراذين ، البزاة ، البغال .

و. **المعادن:** الفضة .

ز. **مواد مختلفة:** الطين للختم ، الطين السيرافي للختم ، النعال ، الرقيق، الجامات، الشمع.

الفصل الثالث
مظاهر من الحياة الاقتصادية

كانت التجارة من أكثر المظاهر الاقتصادية انتشاراً في القرن الثاني الهجري، وتعددت جوانبها واشتملت على مختلف السلع التي هي موضع حاجة الأسواق، وازدادت أرباح التجار، ونشطت مبادلات السلع بين مختلف الأقاليم، وكان ذلك كله من عوامل الانتعاش الاقتصادي في هذه الفترة. وتأتي الفرش والمنسوجات والثياب في المرتبة الأولى من السلع التجارية. وعرفت أنواع مختلفة من الفرش وأجوده وأرفعه ثمناً المِرْعِزّى[١] القرمزي الأرمني والخز الرَّقْم[٢]، ثم الخَزّ[٣] القُطوع، والدَيّباج[٤] على عمل الخسرواني الرومي، والخَزّ المُدبَّج على الميساني، والبزيون[٥] وأفضله "المِسْكي الدقيق النسج، ثم المخطط، ثم المفلس، ثم الساذج ، ثم المُعّين[٦]، ثم المنّقط[٧]" .

واشتهرت طبرستان بفرشها، و"كان أول من افترش الطبري المهدي، وذلك أن أباه كان أمره بالمقام بالريّ فأُهدي إليه الطبري من طبرستان

---

[١] المِرْعِزّى : الزغب الذي تحت شعر العنز. وبه سمي الفرش المنسوج منه. والقِرْمِز : صبغ أرمني، يقال انه من عصارة دود يكون في آجامهم. وقيل: هو أحمر كالعدس محبّب. ومن خاصيته صَبْغ ما كان حيوانياً كالصوف والَقزّ. يقال: لون قِرْمِزيّ . الإفصاح: ٣٩١.

[٢] الخَزّ من الثياب: ما ينسج من صوف وإبريسم (من أجود الحرير). والرُّقْم : المُعلَّم بعلامة.

[٣] القُطوع جمع قُطْع وهو ضرب من الوشي.

[٤] الدَيّباج : ثوب سُداه ولُحْمته إبريسم .

[٥] البُزْيُون: السُّنْدسُ وهو رقيق الديباج .

[٦] ثوب في وَشْيه ترابيع صغار شبه بأعين الوحش .

[٧] الجاحظ : التبصر بالتجارة .

فافترشه، وجعل الثلج والخلاف[١]حوله؛ حتى فتح لهم الَخيْش[٢]، فطاب لهم الطبري فيه"[٣]. وانتشرت صناعة الوَشْي على المنسوجات والثياب، وخير الوَشْي: السابري والكوفي والإبريسمي، والمُذهّب المنسوج ثم الوشي الإسكندراني الكتّان البحت، ثم المنسوج بالذهب، ثم الوشي الغزلي، ثم الذي لا إبريسم فيه ولا ذهب وهو اليماني[٤].

وكانت قيمة بعض الثياب الموشاة تصل إلى ألف دينار. والقطن من المواد الأولية التي استخدمت في النسيج وأفضله الأبيض اللين اللطيف البياض الصافي[٥]. وعرفوا الفراء واستعملوه في ملابسهم. وأشهر الحيوانات التي اتخذ منها الفراء: السنجاب، والثعالب، وأفضلها السود المتميزة بالشعر الغليظ الذي لا يغش بصبغ، ثم البيض. ويفضل فرو الثعلب إذا أريد صبغه أن يصبغ باللون الأحمر أو يُمصّر أي يصبغ بالمصرة وهو العصفر ولونه قريب من لون الزعفران. ومن الفراء ما يتخذ من السمّور[٦] وأفضله الصيني، ثم الخزري الشديد البياض مع شدة السواد الطويل الشعر.

---

[١] الخِلاف : الصَّفْصَاف .

[٢] الخَيْش: ثياب رقاق النسج غلاظ الخيوط تُتّخذ من مُشَاقه الكتّان أو من أغلظ العَصْب وهو شجر اللَّبلابَ. الإفصاح : ٣٦٨.

[٣] تأريخ الرسل والملوك : ١٧٩/٨.

[٤] التبصر بالتجارة : ١٩.

[٥] التبصر بالتجارة : ٢٤ .

[٦] دابّة تكون ببلاد الروس وراء بلاد الترك تشبه الَنّمْس، ومنه أسود لامع، ومنه أشقر، يتُخذ من جلدها فراء مُثْمِنة أي غالية الأثمان. الإفصاح: ٨٣٠.

وكانت تجارة الجوهر رائجة. وعرفت الجواهر في الطبقات الاجتماعية الثرية واستعملت في الغالب حلياً للنساء وفصوص خواتم للرجال وبلغ شغف بعض الخلفاء باقتنائه مبلغاً عظيماً ويحكى عن المأمون حبه للجواهر "وكان الناس يغالون فيه في أيامه فأراد أن يحتال بحيلة تضع من قدره ليرخص قيمته فيشتريه"[١]. وعرفت أصناف مختلفة منه كان أشهرها: الماس[٢]، وأفضله البلوري الصافي الأبيض النقي، ثم الأحمر. وربما بلغ ثمنه مائة دينار للفص الذي يزن نصف مثقال[٣]. أما الياقوت[٤] فخيرة البهرماني الأحمر، ثم الأحمر المُوّرد، ثم الأصفر، ثم الاسمانجوني. وأقله قيمة الأبيض. ويعتبر في الياقوت صفاء اللون وحجم الفص. ووصل ثمن الياقوت الأحمر الصافي إذا بلغ وزنه نصف مثقال الى خمسة آلاف دينار، والياقوت الأسمانجوني[٥] ربما بلغ الفص منه مائتي دينار. ويذكر

---

[١] التنوخي: نشوار المحاضرة : ٢/٤٠.

[٢] حجر مُتَقوّم أعظم ما يكون كالجوزة نادراً، يكسر جميع الأجساد الحجرية، وإمساكه في الفم يكسر الأسنان، ولا تعمل فيه النار ولا الحديد، وانما يكسره الرصاص ويسحقه فيؤخذ على المثاقب ويثقب به الدرّ وغيره. الإفصاح : ٣٥٠.

[٣] التبصر بالتجارة : ١٦ .

[٤] ذكر ابن الأكفاني قيمة الياقوت في أيام المأمون على النحو الآتي: وزن طَسُوج يساوي خمسة دنانير، وضَعْفُه عشرين ديناراً، وسدس مثقال ثلاثون ديناراً، وثلث مثقال مائة وعشرين ديناراً، ونصف مثقال أربعمائة دينار، والمثقال بألف دينار، والمثقال ونصف بألفي دينار. نخب الذخائر في أحوال الجواهر : ٨.

[٥] الأزرق الذي يشابه زرقته لون السماء .

عن أبي جعفر المنصور أنه اشترى الخاتم المسمى بالجبل – وكان وزن فصه مثقالين – بأربعين ألف دينار، وقد قوم بمائة ألف دينار[١].

ومن أنواع الحجارة الكريمة الزَّبَرْجَد[٢]، وأجوده الشديد الخضرة الصافي اللون وبلغ وزن نصف مثقال منه ثمن ألفي مثقال من الذهب. وكان فص الخاتم الذي يسمى (البحر) ثلاثة مثاقيل واشتراه المنصور بثلاثين ألف دينار[٣]. ومن أنواعها أيضاً الفيروزج، وأجود أنواعه الشيربام الأخضر الأسمانجوني الصافي العتيق وغاية ثمن الفص منه إذا بلغ وزنه نصف مثقال عشرون ديناراً .

وكان العقيق[٤] من الجواهر المعروفة المتداولة كثيراً بين الناس، وأفضله العقيق اليماني الشديد الحمرة الذي يرى في وجهه شبه الخطوط، وكلما صفي لونه وأضاء كان أجود في الثمن. ومن أصناف الجوهر البيجادي[٥]، وخير أنواعه الأحمر الشديد الحمرة الملتهب لونه التهاب

---

[١] التبصر بالتجارة : ١٤ .

[٢] قال ابن الأكفاني: هو صنف واحد فستقي اللون شفاف لكنه سريع الإنطفاء رخاوته. نخب الذخائر : ٥٣ .

[٣] التبصر بالتجارة : ١٤ .

[٤] قال التيفاشي "العقيق خمسة انواع ، أحمر ورُطَبّي وهو أحمر الى الصفرة وأزرق وأسود وأبيض. وأجوده الأحمر" . انظر الملحق الأول لكتاب نخب الذخائر ص ٨٥ . ومعدن العقيق بصنعاء وله معادن ببلاد الهند والسند .

[٥] البيجادي أو البجادي واللفظ الأخير هو المشهور، ويعرف بالبنفش، و"هو حجر يشبه الياقوت بعض الشبه إلا انه لا يضيء غالباً حتى يُقعّر من تحته بالحفر ليشفَّ عن البطائن [جمع بطانة وهي ورقة رقيقة صغيرة تكون من ذهب أو فضة توضع تحت الفص ليزداد تألقه]. نخب الذخائر : ١٨.

النار. وكلما كان أصلب وأكبر كان أنفس وأثمن. وبلغ ثمن الفص الجيد منه – إذا كان وزنه نصف مثقال – ثلاثين ديناراً[١].

وصيد اللؤلؤ من المهن القديمة، وراجت تجارته في القرن الهجري وتنافس التجار في شرائه وبيعه، وتكونت لديهم خبرة لتمييز الأصيل من المصنوع منه، وكانوا يعولون في ذلك على مذاقه وصورته وصفائه؛ فما كان عذب المذاق فهو عُمَانّي نسبه إلى عُمان. وما كان ملح المذاق فهو قُلْزُمّي نسبه إلى بحر القُلْزُم وهو الاسم القديم للبحر الأحمر. وكلا النوعين يرسب في الماء. وعرفوا اللؤلؤ المصنوع بأنه مر المذاق مع دسومة فيه، وهو خفيف الوزن يطفو على الماء. وأفضل أنواع اللؤلؤ اللحمي الجوهري وهو اللب بخلاف القشر الذي يسمى الصدفي العظمي. ويتصف الجوهري باستواء الصورة ويكون ليناً أملس أما العظمي فيكون خشناً غير مستوي الصورة. وإذا بلغت حبة اللؤلؤ نص مثقال سميت (دُرَّة)، وربما بلغت في الثمن ألف مثقال ذهباً[٢]. وأثمان اللؤلؤ ترتفع على زيادة وزنها وتدحرجها.

وهناك سلع أخرى كثرت التجارة فيها، منها الزجاج، وأفضل أنواعه ما يعرف بالَبلُّور[٣]، وكان يختار لصفائه وعظمه. وخير الزجاج البلّوري الصافي الأبيض، وعرف نوع آخر منه يدعى الفرعوني. ومنها المِسّك

---

[١] التبصر بالتجارة : ١٥ .

[٢] التبصر بالتجارة : ١٢ .

[٣] يجلب من جزائر الزنج وكشمير ونواحي بذخشان. وله معدن ببِدْيس وارمينية وسرنديب وبلاد الإفرنجة والمغرب الاقصى "وأفضله المستنبط من بطن الأرض ويكون ساطع البياض كثير المائية رزيناً صلباً بحيث يقدح منه النار ويخدش كثيراً من الجواهر بخلاف الملتقط من ظاهر الأرض". نخب الذخائر : ٦٦ .

والعُود، وخير المسك التُّبتّيّ – نسبة الى التُّبّت – اليابس الفاتح. وأجود أنواع العود الهندي المندلي الذي لا غش فيه[١].

ومنها تجارة الجلود، وجلود الوحش بخاصة. فقد شاع بينهم مثلاً استعمال جلد النمر، وأجود أنواعه البربري الموشح الشديد بياضه المشبع سواده الطويل الوشي الساباني. وأظرفها الذي يكون في وسط سواده نقطة سوداء صغيرة بينة؛ وإن كان سواده متصلاً بعضه ببعض بشظية من سواد خفيفة كان أظرف له، وإذا كانت فيه حمرة مع بياض يَقَقٍ وسواد حالك كان أحسن وأبلغ في الثمن. واشتهرت نمور البربر بصغر حجمها والمغربية والهندية بكبر حجمها، وغاية ما يصل اليه جلد النمور البربرية خمسون ديناراً. أما الهندية والمغربية فلا يصلان إلى هذا الثمن[٢].

وكانت البراذين الطخارية (نسبة الى طخارستان) نادرة عزيزة المنال في آواخر القرن الأول الهجري، ثم كثرت بعد ذلك وشاع استخدامها بين الناس على اختلاف طبقاتهم. ومما يروى عن ذلك أن هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ–١٢٥هـ) نظر يوماً "إلى رجل على برذون طخاري، فقال: من أين لك هذا؟ قال : حملني عليه الجنيد بن عبد الرحمن، قال: وقد كثرت الطخارية حتى ركبها العامة. لقد مات عبد الملك وفي مربطه برذون واحد طخاري، فتنافس فيه ولده حتى ظن من فاته أن الخلافة فاتته..." [٣]. ويبدو أن سبب كثرة البراذين الطخارية واستخدامها بين الناس هو جلب التجار لها من طخارستان.

---

[١] التبصر بالتجارة : ١٦ ، ١٧.

[٢] التبصر بالتجارة : ٢٣ ، ٢٤ .

[٣] مروج الذهب : ٢٢٢/٣.

وشملت المبادلات التجارية معظم الأقاليم الإسلامية المعروفة في تلك الفترة وغيرها وأصبح لكل اقليم أنماط من السلع المعروفة التي اشتهر بها، سواء في ذلك الأقاليم الشرقية للدولة أم الأقاليم الغربية يضاف الى ذلك مدن العراق والجزيرة العربية ومصر. وفيما يأتي أهم هذه المدن والأقاليم وأشهر ما يجلب منها: [١]

١. من ميسان . الأنماط[٢] ، والوسائد .

٢. من الموصل : الستور ، والمسوح[٣]، والدّراج[٤]، والسُمانى[٥].

٣. من حلوان : الرمان ، والتين ، والكامخ[٦].

٤. من الجزيرة العربية : الخيل العراب ، والنعام ، والنجائب ، والأدْم[٧].

٥. من اليمن : البرود ، والأَدْم ، والزُّرافات ، والجواميس ، والعتيق ، والكُنْدُر[٨]، والخِطْر[١]، والوَرْس[٢].

---

[١] انظر: التبصر بالتجارة ، صفحات: ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤.

[٢] النمط ويجمع على أنماط ونمِاط "ضرب من البُسُط. وثوب من صوف ملون له خَمْل رقيق يطرح على الهودج". الإفصاح : ٥٧٨ .

[٣] المسْح وجمعه مُسُوح : ثوب من الشعر غليظ .

[٤] الدُّرّاج: طير أرقط بسواد وبياض، قصير المنقار مقتدر الرِّجْل والعنق. الواحدة:دُرّاجة ودُرّجة للذكر والأنثى .

[٥] السُمانى: جمع سُمَاناة ، وهي طائر طويل العنق والرجلين أرقش .

[٦] الكامَخ: إدام، وخصه بعضهم بالمُخّللات التي تستعمل لتشهي الطعام .

[٧] الأدْم والإدام : ما يُؤتَدمُ به، تقول منه: أدَمَ الخبزَ باللحمِ . وهو ما يؤكل مع الخبز .

[٨] الكُنْدُر: هو اللُّبَان. وعن الأصمعي: ثلاثة أشياء لا تكون الا باليمن وقد ملأت الأرض: اللبان والوَرْس والعَصْب، يعني برود اليمن. وأكثر اللبان في شِحْر عمان . وشجرته= = قدر ذراعين ، ولها ورق وثمر كورق الآس، وثمره مُرّ الطعم، وعِلكه الذي يمضخ هو الكندر" . الملك المظفر يوسف بن عمر: المعتمد ٤٣٤.

٦. من مصر : الحُمُر الهماليج[٣]، والثياب الرقاق، والقراطيس، ودهن البَلَسان[٤]، والزَّبَرْجَد.

٧. من البربر ونواحي المغرب: النمور، والقرظ[٥]، واللبود[٦]، والبزاة السود.

٨. من فارس: الثياب الكّتان، ومن أنواعها: التوّزي والسابري، ويجلب ماء الورد، ودهن النيلوفر[٧]، ودهن الياسمين، والأشربة.

٩. من فسا: الفستق، وأصناف الفواكه، وطرائف الثمر، والزجاج .

١٠. من السوس: الأتْرُجَ، ودهن البنفسج، والجِلال[٨]، والبراذع[٩].

١١. من جرجان:العُنّاب[١٠]،وحب الرمان الجيد، والإبريسم الجيد .

---

[١] الخِطْر ، نبات يختضب به مع الحنّاء فُيقَنىء .

[٢] الوَرْس : نبات أصفر كالسمسم يزرع باليمن ويصبغ به .

[٣] الهِمْلاج من البراذين : الجيد السير في سرعة .

[٤] البَلَسان : شجرة يعرف نباتها بمصر ، بالموضع المعروف منها بعين شمس ، ولونها أبيض وأجود دهنها الطري الذكي الرائحة . انظر : المعتمد ٣٢ .

[٥] القَرَظ : اسم لثمرة الشوكة المصرية المعروفة بالسَّنْط. انظر : المعتمد ٣٨٣ .

[٦] اللَّبَد: ما تحت السرج. ويجمع على لبُود.

[٧] النَّيْلوفر: نبات ينبت في الأجام والمياه وصفه صاحب المعتمد ص٥٣٠ بقوله "منه ما يكون داخل الماء. وقد يظهر عليه، وله ورق كثير من أصل واحد، وزهر أبيض شبيه بالسوسن، وسطه زعفراني اللون،إذا طرح زهره كان مستديراً شبيهاً بالتفاحة في الشكل... وفيه بزر أسود عريض مر لزج وله ساق ملساء ليست بغليظة وأصل أسود خشن شبيه بالجزر" .

[٨] الجُلّ : ما يلبسه الفرس ليصان به. الجمع: جِلال وأجلال .

[٩] البَرْذَعة: حِلْس يجعل تحت الرَّحُل . الجمع : البراذع .

[١٠] العُنَاب: ثمر الأراك. واحدته: عُنَّابة .

١٢. من الري: الخوخ، والزئبق، واليرمق، والأسلحة، والثياب الرقاق، والأمشاط، والقلانس[١] الملكية، والقَسّيات[٢] الكتّان، والرمان.

١٣. من أصفهان: الشُّهد والعسل، والسفرجل، والكُمّثْرى الصيني، والتفاح، والملح، والزعفران، والأُشْنان[٣]، والكُحْل، والسُّرُر المطبقة، والأثواب الجياد، والشراب من الفواكه .

١٤. من كرمان: النيلج[٤] والكمّون[٥].

١٥. من الخزر: العبيد والإماء، والدروع، والبِيضان[٦]، والمغافر[٧].

---

[١] القَلَنْسُوة : تلبس في الرأس ، الجمع : قلانس .

[٢] القِسّيّ : ثوب يحمل من مصر يخالطه الحرير. وفي الحديث "أنه نهى عن لُبْس القَسّيّ". قال أبو عبيدة: هو منسوب الى بلاد يقال لها القس. وأصحاب الحديث يقولونه بكسر القاف وأهل مصر بالفتح. مختار الصحاح مادة "ق س س" ص٥٣٤.

[٣] الأُشْنان : شجر ينبت في الأرض الرملية، يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي. الإفصاح : ٣٨٧ .

[٤] النَّيْلَج : هو النّيل، وهو العِظْلم: يستعمله الصباغون، ويتخذ النيل من نبات العظلم "بأن يغسل ورقه بالماء الحار ، فيجلو ما عليه من الزرقة ، وهو يشبه= =الغبار على ظاهر الورق، ويبقى الورق أخضر ويترك ذلك الماء فيرسب النيلج في أسفله كالطين فيصب عنه الماء ويجفف ويرفع" المعتمد : ٥٣١ .

[٥] الكمون: نبات زراعي عشبي سنوي ، بذوره من الآفاوية . انظر / الافصاح : ٥٤٦.

[٦] البَيْضَة: من حديد تلبس في الرأس. وجمعها : بِيضان .

[٧] المِغْفَر: زَرَدٌ ينسج من الدروع على قدر الرأس تلبس تحت القلنسوة .

١٦. من خوارزم: المِسّك ، والسَمَّور، والسّنْجاب[١]، والفَنَك[٢]، وقصب الطّيب.

١٧. من سّمْرقَنْد : الكاغد[٣].

١٨. من بَلْخ ونواحيها: العنب الطيب .

١٩. من ارمينيّة وآذربيجان: اللُّبود، والبراذع ، والفُرش، والبَسُط الرقاق، والتّكَك[٤]، والصوف.

٢٠. من آمد: الثياب الموشية، والمناديل، والمقارم[٥] الرقاق، والطيالسة[٦] من الصوف.

٢١. من قُومَس: الفؤوس، والأمساح، والجَتْر[٧]، والطيالسة من الصوف.

٢٢. من نصيبين: الرصاص.

---

[١] السّنْجاب: حيوان على حد اليربوع من الفأر وشعره في غاية النعومة. يتخذ من جلده الفراء يلبسه المتنعمون... وهو كثير ببلاد الصقالبة والترك ... وأحسن جلوده الأزرق والأملس. انظر حياة الحيوان الكبرى : ٣٤/٢.

[٢] الفَنَك: دويبّة يؤخذ منها الفرو ... يجلب كثيرا من بلاد الصقالبة . حياة الحيوان الكبرى : ٢٢٥/٢.

[٣] الكاغد : هو القرطاس .

[٤] التِّتكَّة : رباط السراويل ، والجمع : تِكك .

[٥] المقارم : ثياب رقاق فيها نقوش والقرام: "ثوب ملون من صوف فيه رقم ونقوش". الإفصاح ٣٦٨ .

[٦] الطيلسان : ضرب من الأكسية ، من لباس العجم . الجمع : طيالسة . الافصاح: ٣٧١.

[٧] الجَتْر : المظلة تتخذ للوقاية من الشمس .

٢٣. من الهند: البُبور، والنمور، والفيلة، وجلود النمور، والياقوت الأحمر، والصَّنْدل[١] الأبيض، والآبنوس[٢]، وجوز الهند.

٢٤. من الصين: الفرند[٣]، والحرير، والكاغد والمِداد[٤]، والطواويس، والبراذين

الفُرّه، والسروج، واللبود، والدارصيني[٥]، والرواند[٦].

٢٥. من الروم : أواني الفضة والذهب، والدنانير الخالصة، والعقاقير، والديباج، والبراذين الفُرّه، والجواري، وظرائف الشبه[١]، والأقفال المحكمة.

---

[١] الصَّنْدَل "خشب يؤتى به من الصين. وهو ثلاثة أصناف: أبيض، وأصفر وأحمر" المعتمد ٢٩٣ .

[٢] الآبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند، خشبة أسود صلب ويصنع منه الأواني والأثاث وبعض الأدوات. والإفصاح : ١١٢٤ .

[٣] الفِرنْد : حَبّ الرمان .

[٤] المِداد : الذي يكتب به وهو النقش. تقول منه. مددت من الدواة استمدت منها: أخذتُ منها بالقلم للكتابة.

[٥] نبات، وهو على ضروب قال في المعتمد ص١٤٥ "منه الدارصيني على الحقيقة المعروف بدارصيني الصين. ومنه الدارصيني الدون، وهو الدار صوص. ومنه المعروف بالقرفة على الحقيقة، ومنه المعروف بقرفة القرنفل".

[٦] الراوند: من الأعشاب، وهو خشب ويتخذ بأن يطبخ جيداً. وتؤخذ مائيته فتجفف عصارته ثم يجفف خشبة بعد الطبخ ويباع كما هو، والراوند أصناف : منه الصيني، ومنه زنجي ، ومنه تركي، ومنه شامي . وأجود أصنافه الصيني. وهو من الأعشاب التي يتداوى بها. انظر : المعتمد ١٨١ ، ١٨٢ .

وشهدت بعض المواد الغذائية ارتفاعاً في الأسعار على الرغم من توفر الزراعة وانتشارها. ويمكن إرجاع ذلك إلى فترات الاضطراب السياسي، أو حدوث الفيضانات التي كانت تتلف معظم المحاصيل الزراعية ومنها الغلات كالحنطة والشعير، أو انقطاع طرق المواصلات بين بعض الأقاليم، وبينها وبين العاصمة. وقد بلغ سعر الخبز أيام الفتنة بين الأمين والمأمون في بغداد عشرين رطلاً[٢] بدرهم في حد المأمونية ورطلاً بدرهم في حد المحمدية[٣]. وفي سنة ٢٠٧هـ غلت أسعار الحنطة ببغداد والبصرة والكوفة حتى بلغ سعر القفيز[٤] من الحنطة بالهاروني أربعين درهماً إلى الخمسين[٥].

على حين شهدت هذه المواد الغذائية وغيرها استقراراً في الأسعار في فترات الانتعاش الاقتصادي، وربما كانت خلافة المنصور من أكثر الفترات استقراراً لذلك ترد إشارات إلى أسعار بعض السلع الضرورية، منها أن الكبش كان يباع في عصره بدرهم، والحَمَل بأربعة دوانيق، والتمر بدرهم

---

[١] الشّبْه والشَّبَه والشَّبْهَان: اللاطون وهو الصُّفْر، وهو جنس من النحاس الجيد. والنحاس الأصفر . وقيل هو النحاس يصبغ فيصفر. انظر : الإفصاح ١٠٣٨.

[٢] الرطل : مقدار من الوزن وهو يساوي (١٢٨) درهماً ، والمثقال يساوي درهماً وثلاثة أسباع درهم. انظر: مفاتيح العلوم ١١ ، ١٢. والدرهم الإسلامي : ست عشرة حبة خرنوب . الإفصاح : ١٢٤٩ .

[٣] مروج الذهب : ٤١٥/٣.

[٤] القَفيز: ثمانية مكاكيك، وكل مكّوك ثلاث كيالج. والكّيْلجة وزن ستمائة درهم . مفاتيح العلوم : ١٢ .

[٥] تأريخ الرسل والملوك : ٥٩٦/٨ .

لستين رطلاً، والزيت بدرهم لستة عشر رطلاً، والسمن بدرهم لثمانية أرطال[1]. وحاول المنصور أن ينظم الحوانيت في بغداد بما يمكن أن نسميه التخصص بالبيع، "وأمر أن يجعل في كل ربع من مدينته بقال يبيع البقل والخل حَسْبُ"[2].

---

[1] مناقب بغداد : ٢٥ .

[2] ابن العبري : تاريخ مختصر الدول : ١٢٣ .

الفصل الرابع

بناء المدن والمشاريع العمرانية

المساجد والجوامع

أن العناية بترميم الكعبة من الأمور القديمة التي سبقت الإسلام أجيالاً، وزادت العناية بها بعد الإسلام للمنزلة المهمة التي أحاط بها الدين الجديد هذا المكان المقدس، فهي قبلة المسلمين وموضع حجهم، وتقع في المدينة التي ولد بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهبط عليه الوحي فيها، فهي رمز إلى الرسالة والى صاحب الرسالة، لذلك كله شهدت ترميمات وتوسعات في بنائها. وفي نهاية القرن الأول الهجري، وعلى امتداد القرن الثاني الهجري نلاحظ كثرة الترميمات والزيادات على المسجد الحرام، ففي خلافة عمر بن عبد العزيز بنى مسجد الجُحْفة ميقات الإحرام لحجاج مصر[1].

وأراد ابو جعفر المنصور أن يزيد في المسجد الحرام، وشكا الناس ضيقه، فكتب إلى زياد بن عبيد الله الحارثي أن يشتري المنازل التي تلي المسجد حتى يزيد فيه ضعفه، فامتنع الناس من البيع، فذكر ذلك للإمام جعفر بن محمد عليه السلام، فقال: سلهم أهم نزلوا البيت أم البيت نزل عليهم، فكتب بذلك إلى زياد، فقال لهم زياد بن عبيد الله ذلك، فقالوا: نزلنا عليه، فقال الإمام جعفر بن محمد عليه السلام: فإن للبيت فناءً، فكتب أبو جعفر إلى زياد بهدم المنازل التي تليه فهدمت المنازل وأدخلت عامة دار الندوة فيه حتى زاد ضعفه[2]. وكان ابتداء العمل بهذه الزيادة في سنة

---

[1] مآثر الإنافة : ١٤٣/١.

[2] تأريخ اليعقوبي: ١٠٩/٣.

١٣٨هـ وتم الفراغ منها في سنة ١٤٠هـ. وأمر المنصور بتجديد بناء مسجد الخيف بمنىً – وهي من شعائر الحج – والزيادة فيه.

وعني المهدي في خلافته بتوسيع المسجد الحرام والمسجد النبوي بالمدينة، "وكانت الكعبة في جانب المسجد لم تكن متوسطة فهدم حيطان المسجد الحرام وزاد فيه زيادات واشترى من الناس دورهم ومنازلهم وأحضر الصنّاع والمهندسين من كل بلد ، وكتب إلى واضح مولاه وعامله على مصر في حمل الأموال الى مكة واتخاذ الآلات وما يحتاج إليه من الذهب والفسيفساء وسلاسل القناديل والخروج بها حتى يسلمها إلى يقطين بن موسى ومحمد بن عبد الرحمن ، وصيرت الكعبة في الوسط"[١].

وهذه من الإشارات المبكرة إلى استعمال آلات الزينة المختلفة في الكعبة ومنها الذهب والفسيفساء[٢] والقناديل. وزيادة المهدي في المسجد الحرام من آخر الزيادات كما نص على ذلك بعض المؤرخين[٣]، وينسب إليه بناء العلمين اللذين يسعى بينهما وبين الصفا والمروة[٤]، ولعلهما كانا بناءين على طرفي المسعى يهتدي بهما الحجيج. ولم تقتصر جهود المهدي على الكعبة بل باشر أيضاً في توسيع المسجد النبوي بالمدينة وتزيينه

---

[١] تأريخ اليعقوبي : ١٣٤/٣، ونص على أن ذلك حدث في حجة المهدي سنة ١٦٠هـ، ونص السيوطي على أن الزيادة الكبرى في المسجد الحرام حدثت سنة ١٦٧هـ. انظر : تاريخ الخلفاء ٢٧٣ .

[٢] الفُسَيْفِساء: ألوان تؤلف من الخرز فتوضع في الحيطان. والفِسْفِس: البيت المصور بالفُسَيْفِساء. الافصاح : ٥٧١ .

[٣] تأريخ اليعقوبي : ١٣٤/٣.

[٤] تأريخ اليعقوبي : ١٣٤/٣ ، ومآثر الإنافة : ١٨٥/١ .

بالرخام والفسيفساء والذهب، ورفع سقفه وألبس خارج القبر الرخام. وفي سنة ١٦٠هـ نزع المهدي كسوة الكعبة التي كانت عليها وكساها كسوة جديدة ويرجع السبب في ذلك إلى كثرة ما كان عليها من الكسوة حتى خاف حجبتها من انهدامها، وقبل ان يكسيها المهدي كسوته الجديدة أمر بأن يطلى البيت كله بالخَلُوق[١].

وكانت عناية الخلفاء العباسيين بموسم الحج وشعائره لا تقل أهمية عن عنايتهم بتجديد بناء البيت الحرام وتوسيعه وتزيينه، وكان بعض الخلفاء يقيم شعائر الحج بنفسه، ومعظمهم يبعث بمن يمثله في الموسم. ويروى عن الرشيد أنه اذا أراد الحج صحبه "مائة من الفقهاء وأبناؤهم، واذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة"[٢]. وفي عهد المأمون كسا الكعبة بالديباج الأبيض، وأستمر ذلك بعده إلى أيام الناصر[٣].

وفي المدة اليسيرة التي تولى فيها الأمين الخلافة وجه بعشرين ألف مثقال ذهباً الى الكعبة فجعلت صفائح على بابها ومسامير للباب والعتبة[٤]. وتفيدنا هذه الإشارة شيوع استعمال الذهب في تزيين الأضرحة والأماكن المقدسة بعد الذي لاحظناه في عهد المهدي من استعمال الذهب والرخام في تزيين البيت الحرام.

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ١٣٣/٨ ، وتاريخ الخلفاء : ٢٧٣. الخَلُوق ، والخِلاق ، ضرب من الطّيب أعظم أجزائه الزعفران . الافصاح : ٣٠٦ .

[٢] الفخري : ١٩٣ .

[٣] تاريخ الخلفاء : ٣٢٨ .

[٤] تأريخ اليعقوبي : ١٧٠/٣.

وكانت أُم الأمين قد لاحظت شدة احتياج الحجاج إلى المياه في الموسم، وبخاصة في أشهر الصيف، لذلك أقدمت في عهد زوجها على الإيعاز بحفر عين المشاش، وقد تم حفرها عندما حجت مرة أخرى معتمرة "فبنت المصانع[١] وجعلت الحياض والسقايات"[٢].

ولم تقتصر العناية على مسجدي الحرام والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بل شملت جميع المساجد والجوامع والأضرحة سواء كانت مقابر لأولياء معروفين أم مطلق المساجد لاقامة الجماعة والجمعة وصلاة العيدين. وأنشئت في بغداد مساجد كثيرة وقد ذكر بعض المؤرخين أرقاماً مبالغاً فيها عن عدد هذه المساجد، فعلى قول أحمد بن طاهر في (كتاب بغداد) بلغت مساجدها ٣٠٠,٠٠٠ مسجد[٣]. وهو رقم فيه الكثير من المبالغة. ومن الجوامع الكبيرة التي أنشئت مبكراً في بغداد أول جامع بناه بها المنصور ملاصق قصره المعروف بقصر الذهب، بناه باللَّبِن، ومساحته مائتا ذراع في مائتين؛ فأمر الرشيد بنقضه وأعاد بناءه بالآجُرّ والجَصَ وكتب عليه اسمه[٤] وفي سنة ١٥٩هـ بنى المهدي مسجد الرصافة[٥]. وفي سنة ١٦١هـ أمر "بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتقصير المنابر

---

[١] المَصْنَع: ما يصنع لجمع الماء نحو البِرْكة والصهّريج. والمَصنْعَة – بالهاء – لغة . والجمع : مصانع، الفيومي : المصباح المنير ٣٤٨ .

[٢] تأريخ الخلفاء : ١٧٠/٣.

[٣] مناقب بغداد : ٢٤ .

[٤] مناقب بغداد : ٢٠ .

[٥] تأريخ الرسل والملوك : ١١٦/٨ .

وتصغيرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به"[١].

وفي العام نفسه أمر بالزيادة في مسجد الجامع بالبصرة، فزيد فيه من مقدمة ما يلي القبلة، وعن يمينه مما يلي رحبة بني سليم[٢].

وسار ولاة الامصار على أثر الخلفاء في العناية ببناء المساجد، وفي سنة ١٧٨هـ "شخص الفضل بن يحيى الى خراسان والياً عليها، فأحسن السيرة بها، وبنى المساجد والرَبّاطات"[٣].

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ١٣٦/٨ ، وقارن بتأريخ الخلفاء ٢٧٣ .

[٢] الطبري : ١٣٦/٨ .

[٣] الطبري : ٢٥٧/٨. "الرّباط : الذي يبنى للفقراء . مُولّد. ويجمع في القياس: رُبُط – بضمتين ورباطات" . المصباح المنير : ٢١٦ .

بناء مدينة بغداد

تعد مدينة بغداد من أشهر المدن التي بنيت في القرن الثاني الهجري. وابتدأ أبو جعفر المنصور بوضع أساس المدينة سنة ١٤٥هـ، واستتم البناء سنة ١٤٦هـ، وسماها (مدينة السلام)[١]، ونزلها ونقل اليها الخزائن وبيوت الأموال والدواوين[٢] وسميت أيضاً (الزوراء)، وكانت هذه التسمية تطلق في أول الأمر على مدينة المنصور خاصة أي الجزء الذي بناه المنصور من الجانب الغربي، ثم عمم الاستعمال بعد ذلك وأطلق على جانبي المدينة وملحقاتها. وأشهر أسمائها (بغداد)، وتلفظ أيضاً بغداذ – بالذال – ، وبغدان ، ومغداد ، ومغداذ – بالذال –، ومغدان[٣].

ووجه المنصور إلى الآفاق في جلب الصّناع والعمال والفَعَلة، فتوافدوا من مدن كثيرة منها الشام والموصل والكوفة وواسط والبصرة. وأرسل في طلب ذوي الفضل والعدالة والأمانة والمعرفة بالفقه وبالهندسة، وكان ممن أُحضر الحجاج بن أرطأة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت، وأمر بخط المدينة وحفر الأساسات، وضرب اللَّبِن وطبخ الآجُرّ. وكان أبو حنيفة يعد اللبن بالقَصَب، وهو أول من فعل ذلك ، وكانت اللبنة الواحدة ذراعاً في ذراع، أما وزنها فبلغ (١١٧) رطلاً. واحتاج المنصور خلال البناء إلى مزيد من الآجر والحجر والمواد الإنشائية الأخرى، وفكر في هدم إيوان كسرى

---

[١] نشوار المحاضرة : ٥/٤٠.

[٢] مناقب بغداد : ٩ .

[٣] ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مادة "بغداد" ١/٤٥٦ ، طبع دار صادر – بيروت ١٩٧٧.

واستعمال أنقاضه بناء على مشورة من أبي ايوب المورياني، وأشار عليه خالد بن برمك بخلاف ذلك لأن المؤونة في نقضه أكثر من نفعه، ونقض ناحية من القصر الأبيض وحمل إلى بغداد فوجد المنصور أن مقدار ما يلزمه للنقض والحمل أكثر من ثمن الجديد لو عمل فرجع إلى مشورة خالد وانصرف عن هدم الإيوان[١]. وبلغت المساحة الكلية لمدينة بغداد (١٣٠) جريباً[٢]، وعمل لها سوران: داخلي وخارجي، فالسور الداخل أطول من السور الخارج ، وبنى المنصور قصره وسط المدينة، والمسجد الجامع حول القصر[٣]، وكانت المدينة على شكل دائري تحيط بها الأسوار، وجعل عرض السور من أسفله خمسين ذراعاً، وأعلاه عشرين ذراعاً، وبلغ ما كان يوضع في كل ساف من البناء (١٦٢,٠٠٠) لبنة، وكان ارتفاع السور خمساً وثلاثين ذراعاً[٤]. وذكر عن رباح البناء ، وهو أحد المتولين بناء سور المدينة، قوله "من كل باب من أبواب المدينة إلى الباب الآخر ميل ، وفي كل ساف مائة ألف لبنة وخمسين ألف لبنة. فلما بنينا الثلث من السور

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ٦٥٢/٧.

[٢] مناقب بغداد : ٩ . والجَريب : مقدار من المساحة ، ومعناه اللغوي : الوادي ثم استعير اصطلاحاً للقطعة المتميزة من الأرض فقيل: جَريب، وجمعها: أجرْبة وجُرْبان . واختلف في مقدار الجريب، وأشهر القولين أن مقداره (٣,٦٠٠) ذراع أو (١٠,٠٠٠) ذراع انظر: مفاتيح العلوم ٤٤ ، والمصباح المنير: ٩٥ . وبذلك تكون مساحة بغداد بعد بنائها على القول الأول (٤٦٨,٠٠٠) ذراع ، وعلى القول الثاني (١,٣٠٠,٠٠٠) ذراع.

[٣] تأريخ الرسل والملوك : ٦٥٢/٧ .

[٤] مناقب بغداد : ٩ .

لطفناه فصيرنا الساف مائة الف لبنة وخمسين ألف لبنة ، فلما جاوزنا الثلثين لطفناه فصيرنا في الساف مائة وأربعين ألف لبنة إلى أعلاه..."[١].

اما أبواب المدينة فثمانية، أربعة منها خارجة وأربعة أخرى داخلة. والأبواب الأربعة الخارجة سمي الأول باب خراسان وأنشئ على دجلة، وسمي الثاني باب البصرة وأنشئ على نهر الصراة الذي ينحدر من الفرات ويصل إلى دجلة، وسمي الثالث باب الكوفة وسمي الرابع باب الشام. وعلى كل باب من هذه الأبواب مجالس وقباب مذهّبة يصعد إليها على الخيل[٢]، وباب خراسان جيء به من الشام ، وزعم بعض المؤرخين انه من عمل الفراعنة[٣]، وربما نسبت إليه هذه النسبة لجودته أو لنقوشه التي أشبهت نقوش المصريين القدامى أو لضخامته، وإن كنا نرجح السبب الأخير لأن الأبواب الخارجية للقلاع – عادة – تكون ضخمة محكمة خالية من النقوش، وعملها الأساس حماية المدينة من المهاجمين على نحو تبقى فيه صامدة بوجه المنجنيقات وآلات دك الحصار. وذكر المؤرخون أيضاً أن الباب الذي صير على باب الكوفة جيء به من الكوفة نفسها وكان عمله خالد بن عبد الله القسري، أما الباب الذي اتخذ لباب الشام فعمل ببغداد ووصف بأنه من أضعف أبواب المدينة. ويقابل هذه الأبواب الأربعة الخارجة الأبواب الأربعة الداخلة كل بحسب اسمه المتقدم، فيكون لباب البصرة مثلاً بابان أحدهما خارج والآخر داخل ويسمى كلاهما باب البصرة. والوافدون إلى المدينة يدخلونها من الأبواب المذكورة ، وكل باب تستقبل

---

[١] مناقب بغداد : ٩ ، ١٠ .

[٢] تأريخ اليعقوبي : ١١٣/٣ .

[٣] تأريخ الرسل والملوك : ٦٥١/٧ .

الزوار بحسب مكانهم الذي جاءوا منه ، فإذا جاء أحد من الحجاز دخل من باب الكوفة، وإذا جاء من المغرب دخل من باب الشام، والذي يأتي من الأهواز وواسط والبصرة والبحرين يدخل من باب البصرة، والوافدون من المشرق الإسلامي يدخلونها من باب خراسان[١]. وقدرت المسافة بين الباب والآخر بألف ومائتي ذراع[٢].

وباشر المنصور ببناء قصره في وسط المدينة، وكانت مساحته أربعمائة ذراع في أربعمائة ذراع، وكان في صدره إيوان طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعاً، وفي صدر الإيوان مجلس عشرون في عشرين، وفي صدر القصر القبة الخضراء، طولها ثمانون ذراعاً، وعلى رأسها تمثال فرس عليه فارس. ويروى أن رأس هذه القبة قد سقط يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٢٩هـ[٣]. وأمر المنصور بإنشاء قنوات المياه بالساج[٤] من باب خراسان إلى قصره، ومدت قناتان الى داخل المدينة إحداهما من نهر دجيل الأخذ من نهر دجلة، والأخرى من نهر كرخايا الأخذ من الفرات، وروت هاتان القناتان يضاف اليهما أنهار أخرى

---

[١] مناقب بغداد : ١٠ .

[٢] مناقب بغداد : ١٠ .

[٣] مناقب بغداد : ١١ .

[٤] الساج : شجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً، وله ورق أمثال التراس الديلمية، يتغطى الرجل بالورقة منه فُتكّنه من المطر، ولا ينبت إلا ببلاد الهند والزنج . الإفصاح : ١١١٧.

شوارع المدينة وطرقاتها والدروب وكانت تجري صيفاً وشتاءً، وأحكمت بالآجر والصاروج[١].

وتدبر المنصور أمر الأسواق، وأمر بإخراجها من المدينة إلى أطرافها، ورتب أصنافها ومواضعها، وجعل سوق القصابين في آخر الأسواق معللا لذلك بأنهم "سفهاء وفي أيديهم الحديد القاطع"[٢] وزيادة في الحيطة جعل لأهل الأسواق مسجداً يجتمعون فيه يوم الجمعة ليمنع دخولهم المدينة .

وفي سنة ١٥١هـ ابتدأ المنصور ببناء الرصافة في الجانب الشرقي لابنه المهدي ، وعمل لها سوراً وهدفاً وميداناً وبستاناً ، وأجرى لها الماء ، وأقطع القواد هناك قطائع . وكان بناء الرصافة كلها بالرهص – وهو الطين الذي يبنى به يجعل بعضه فوق بعض – ماخلا مساكن المهدي[٣] ويظهر أنها بنيت بالآجر . وأصبحت الرصافة فيما بعد مقابر للخلفاء يدفنون بها موتاهم ، فضلاً عن مقابر قريش في الكرخ من الجانب الغربي ، ويبدو أن هذه المنطقة أصبحت كالحرم الآمن يلجأ اليه الخائفون "بما كان يبنى بها من القبور المجللة ، وما يحمل اليها من الفرش العظيم والآلات الجليلة ،

---

[١] الآجُرّ: اللَّبِن إذا طبخ، بمد الهمزة والتشديد أشهر من التخفيف والصاروج: النُّورة وأخلاطها ، انظر المصباح : ٦ ، ٣٣٧ .

[٢] مناقب بغداد : ١٣ .

[٣] مناقب بغداد : ١٢ .

وما يوقف عليها من العقار والضياع"[١]. وفي سنة ١٥٩هـ بنى المهدي حائط الرصافة وحفر خندقها[٢] المحيط بها ، وهو تتمة لما بدأه أبوه .

واشتغل في بناء مدينة بغداد آلاف العمال، وقدر عددهم بخمسين ألف رجل[٣]. وأنفق المنصور على بنائها ملايين الدراهم، ففي رواية ذكرها الطبري[٤] عن عيسى بن المنصور أنه قال : "وجدت في خزائن أبي المنصور في الكتب أنه انفق على مدينة السلام وجامعها وقصر الذهب بها والأسواق ... والخنادق وقبابها وأبوابها : أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهما ..."، وحدد بعضهم المبالغ التي صرفها المنصور على بناء بغداد بثمانية عشر ألف ألف[٥]. وعلى الرواية الأولى يكون أجر الأستاذ من الصنّاع قيراطاً الى خمس حبات في اليوم. وكلمة (الأستاذ) كانت تطلق في ذلك العصر على مُقّدم البنائين ، أما (الروز كاري) أو (الروزجاري) – وتطلق الكلمة على العامل الذي يعمل بأجر يوم – فأجره حبتان الى ثلاث حبات في اليوم[٦].

---

[١] الفخري : ١٧٣ .

[٢] تأريخ الرسل والملوك : ١١٦/٨ .

[٣] مروج الذهب : ٣١٨/٣ .

[٤] تأريخ الرسل والملوك : ٦٥٥/٧ .

[٥] مناقب بغداد : ٩ .

[٦] تأريخ الرسل والملوك : ٦٥٥/٧ ، ومناقب بغداد : ٩ .

الدور والقصور

اشتهرت دور الخلفاء وقصورهم التي أنشأوها في عواصم الدولة والأمصار التابعة لها ، ولما كانت بغداد من أشهر المدن التي بنيت في القرن الثاني الهجري عني الخلفاء العباسيون بتشييد القصور الفخمة فيها وسط حدائق غناء تدل على ترفهم وجللوها بما ذكر في المصادر بأنواع الزينة والنقوش وأحواض الماء والفوارات والأزهار والأشجار والطيور وغيرها. وقد برع الفنان من بَنّاء ونقّاش بإبراز مختلف القيم الجمالية في هذه القصور .

ومن القصور التي شيدها المنصور قصر سماه (الخُلْد)، بناه على دجلة مما يلي باب خراسان[١]. وفي سنة ١٦٤هـ بنى المهدي بعيساباذ الكبرى قصراً من لبن[٢]، قبل أن يشيد قصره الذي بناه هناك بالآجر سنة ١٦٦هـ وسماه قصر (السلامة)[٣]، وكان تأسيسه إياه يوم الأربعاء في آخر ذي العقدة ، فنزله ونزل الناس معه بعيساباذ ، وضرب بها الدنانير والدراهم. وكانت القصور تشيد أغلبها بالآجر ويستعمل في بنائها الجص والحجر والرخام والمرمر ، أما بيوت العامة والفقراء فقد كانت تبنى باللبن والأخصاص[٤].

---

[١] مناقب بغداد : ١٢ .

[٢] تأريخ الرسل والملوك : ١٥٠/٨ .

[٣] تأريخ الرسل والملوك : ١٦٢/٨ ، وتاريخ الخلفاء : ٢٧٣ .

[٤] الوزراء والكتاب : ٢٦٧ . الخُصّ : البيت من القَصَب . والجمع : أخصاص. المصباح : ١٧١.

المدن والثغور

كانت العناية بالمدن والأمصار التابعة للدولة عناية جيدة ولاسيما المدن الكبرى منها ، وان لم تبلغ مقدار ما كان يصرف على العاصمة . ويبدو أن الأمويين والعباسيين عنوا كثيراً بالثغور – وهو مصطلح يطلق على حدود المسلمين مع جيرانهم وبخاصة الدولة البيزنطية – .

وكانت المدن والأمصار القريبة من هذه الثغور موضع اهتمامهم أيضاً ولاسيما المدن التي تتبوأ مركزاً حساساً من الوجهة العسكرية وسوق الجيوش . وكانت علاقة الدولة العربية بالدولة البيزنطية المحايدة لها على ثغور الشام والسواد وارمينية تمر بأزمات شديدة وتنتهي في الغالب بحروب صغيرة أو كبيرة.

واتخذ أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور بعض المدن عاصمة للدولة الجديدة ، قبل بناء مدينة بغداد ففي سنة ١٣٤هـ انتقل السفاح من الحيرة ونزل الأنبار واتخذ بها مدينة سماها (الهاشمية) واشترى فيها قطاعات كبيرة أقطعها أهل بيته وقواده[١]. وفي سنة ١٥٤هـ فكر المنصور ببناء مدينة قريبة من الرقّة على طراز مدينة بغداد ، وواجه مشاكل كبيرة من أهل الرقة حتى هموا بمحاربته ، وكان اعتراضهم عليه أن بناء مثل هذه المدينة يعطل عليهم أسواقهم ويذهب بمعايشهم ويضيق عليهم منازلهم[٢]. ولكن المنصور ثبت على رأيه ووجه ابنه المهدي في العام القابل أي في سنة ١٥٥هـ لبناء المدينة المذكورة آنفاً، فبناها على

---

[١] تأريخ اليعقوبي : ٩٨/٣ ، وانظر : مآثر الإنافة : ١٦٢/١ .

[٢] تأريخ الرسل والملوك : ٤٤/٨ .

غرار مدينة بغداد في أبوابها وفصولها ورحابها وشوارعها، وسوّر سورها وخندقها[١]، وسميت هذه المدينة الجديدة بـ(الرافقة).

والترميمات والإضافات كانت جارية على المدن والأمصار ولاسيما القريبة من العاصمة ، وفي سنة ١٥٥هـ خندق أبو جعفر على الكوفة والبصرة ، أي حفر حولها خندقاً، وضرب عليها سوراً ، وذكر الطبري[٢] أن المنصور أنفق على السور والخندق من أموال أهله، على حين ذكر في الموضع نفسه أنه لما أراد بناء سور الكوفة وحفر خندقها "أمر بقسمة خمسة دراهم على أهل الكوفة ، وأراد بذلك علم عددهم ، فلما عرف عددهم أمر بجبايتهم أربعين درهما من كل إنسان ، فجبوا ، ثم أمر بإنفاق ذلك على سور الكوفة وحفر الخنادق لها" حتى قال أحد الشعراء معرضاً بالمنصور :

يا لقومي ما لقينا من أمير المؤمنينا
قسم الخمسة فينا وجبانا الأربعينا

ولعله فعل ذلك أو شبيه ذلك بأهل البصرة ، أو أن النفقة على هذا البناء كانت من بيت المال لما عرف عن المنصور من بخل شديد واقتصاد في النفقات حتى لقب بالدوانيقي نسبة إلى الدانق وهو سدس الدرهم[٣].

وكانت بغداد تحتاج إلى جسور تربط جانبيها الشرقي والغربي أحدهما بالآخر على نهر دجلة الذي يخترق المدينة من الشمال الى الجنوب ، وفي سنة ١٥٧هـ[٤] (وفي رواية أخرى سنة ١٥٩هـ)[١] عقد أول

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ٤٦/٨ .

[٢] تأريخ الرسل والملوك : ٤٦/٨ .

[٣] المصباح : ٢٠ .

[٤] تأريخ الرسل والملوك : ٥٧/٨ .

جسر بغداد عند باب الشعير ، عقده حميد القاسم الصيرفي بأمر الربيع حاجب المنصور. وذكر المؤرخون أن عدد الجسور التي أقيمت في بغداد بلغت خمسة. عقد المنصور منها ثلاثة جسور : أحدها للنساء وعقد الجسرين الآخرين بباب البستان لنفسه وحشمه وعقد الرشيد عند باب الشمّاسية جسرين فلما قتل الأمين عطلت هذه الجسور وبقي منها ثلاثة ثم عطل واحد . ومن الغريب أن المنصور الذي عزم على هدم إيوان كسرى والاستفادة من أحجاره في بناء بغداد أمر بمرمة القصر الأبيض الذي بناه كسرى ، وأمر أن يغرم كل من وجد في داره شيء من الآجر الخسرواني مما نقضه من بناء الأكاسرة وعلل لذلك بأنه فيءٌ للمسلمين . ولم يتم للمنصور ما أمر به من الغرامة ولا ما أمر به من مرمة القصر[٢]. وعني المهدي بالثغور، وبنى الثغر المعروف بالحدث سنة ١٦٣هـ[٣]، وهو من الثغور على حدود الروم . وأمر الرشيد ببناء طرسوس في سنة ١٧٠هـ[٤]، وفي رواية سنة ١٧١هـ[٥]، وعمرت على يدي أبي سليم فرج الخادم التركي، وأحكم بناءها وجعل لها خمسة أبواب وحولها سبعة وثمانين برجاً ، ولها نهر عظيم يشق في وسطها ، عليه القناطر المعقودة . وابتنى ابراهيم بن الأغلب عامل الرشيد على القيروان مدينة العباسية بالقرب من القيروان في سنة ١٨٤هـ[٦].

---

[١] مناقب بغداد : ٢٠ .

[٢] تأريخ الرسل والملوك : ٥٧/٨ .

[٣] تأريخ اليعقوبي : ١٣٤/٣.

[٤] تأريخ الرسل والملوك : ٢٣٤/٨ .

[٥] تأريخ اليعقوبي : ١٤٧/٣ ، وذكر القلقشندي ان ذلك حدث سنة ١٩٠هـ. انظر مآثر الإنافة : ١٩٧/١ .

[٦] مآثر الإنافة : ٢٠١/١ .

الفصل الخامس
العلوم الدينية

مقدمة : التعليم وتدوين العلوم

كان التعليم في أول أمره يعتمد أساساً على الكَتّاب، ووجدت طبقة من المعلمين ، كانت تعلم الصبيان في الكتاتيب التي انتشرت في مختلف الأمصار الإسلامية . أما الموضوعات التي كانت تدرس فيبدو أنها تختلف من عمر إلى آخر، ولكن الموضوعات الدينية واللغوية تصدرت الجميع، فكان التلميذ أو صبي الكتّاب يتلقى مبادئ في علوم القرآن والقراءات والفقه والفرائض والحديث والنحو واللغة، وإذا ما أتم مرحلة انتقل إلى كُتّاب أوسع موافق لمرحلته الجديدة، حتى تصل معرفته بالمبادئ والموضوعات مبلغاً يؤهله لأخذ العلم من الشيوخ في المساجد، التي كانت تنتشر فيها حلقات التدريس العالي المنظم .

ومن المعلمين الذين ورد ذكرهم في كتب التراث: علقمة بن أبي علقمة مولى عائشة، كان يروي عنه مالك بن أنس، وكان له مكتب يعلم فيه العربية والنحو والنصوص، ومات في خلافة المنصور[١]. ومن المعلمين الذين كانوا يعلمون الصبيان بأجرة: أبو البيداء الرياحي[٢]. وكان الضحاك بن مزاحم وعبد الله بن الحرث يعلمان ولا يأخذان أجراً[٣].

وعني بعض الوزراء بالكتاتيب، ويروى عن خالد البرمكي أنه اتخذ كتاتيب لليتامى[٤]، وهو دليل على كثرة انتشارها في الأمصار التابعة

---

[١] ابن قتيبة : المعارف ٢٣٩ .

[٢] ابن النديم : الفهرست ٤٩ .

[٣] المعارف : ٢٣٨ .

[٤] الوزراء والكتاب : ١٧٧ .

للدولة، ثم هو دليل آخر على نظارة الدولة على أمور التعليم في البلد. أما عن كيفية أخذ العلم في المسجد وحلقات التدريس المتخصص، فالغالب هو أخذه عن طريق الحفظ والرواية الشفوية، لأن التأليف والتصنيف لم يبلغ بعد مرحلة الشيوع والتداول، وان عرفت بعض الرسائل والكتب الصغيرة، وفي عصر المنصور "كان الأئمة يتكلمون من حفظهم ويروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة"[١].

وفي منتصف القرن الثاني الهجري بدأ تأليف الكتب وتصنيفها يأخذ منهجاً منظماً، وقبل ذلك وجدت محاولات كثيرة في تدوين العلوم الدينية واللغوية ، وينسب الى أبي الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أنه صنف الكتب بالحجاز، وعن سعيد بن ابي عروبة أنه صنف الكتب بالعراق[٢]، وقد توفي ابن جريج في سنة ١٥٠هـ عن أكثر من سبعين سنة. وذكر السيوطي[٣] نقلاً عن الذهبي أنه في سنة ١٤٣هـ "شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير، فصنف ابن جريج بمكة، ومالك المُوّطأ بالمدينة ، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنف ابن اسحاق المغازي ، وصنف أبو حنيفة الفقه والرأي، ثم بعد يسير صنف هشيم والليث وابن لهيعة ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب . وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية واللغة والتأريخ وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم

---

[١] القرماني : أخبار الدول ١٤٧ .

[٢] شذرات الذهب : ٢٢٦/١ .

[٣] تاريخ الخلفاء : ٢٦١ .

من صحف صحيحة غير مرتبة" والظاهر أن التدوين في مثل هذه العلوم تعود بواكيره الى القرن الأول ولقي التأليف في العلوم الدينية واللغوية والتأريخ والمغازي وغيرها تشجيعاً، ويروى عن الرشيد أنه لما قدم العراق عائداً من الحج "كان أول ما ابتدأ فيه النظر أن كتب إلى الأمصار كلها، والى أمراء الأجناد : أما بعد ، فانظروا من التزم الأذان عندكم، فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم، وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن، وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحر فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء..."[١].

وتوسعت المجالس العلمية الخاصة، ولم تقتصر على العلوم الدينية واللغوية والأخبار والتأريخ، بل عقدت مجالس منظمة لبحث المسائل الكلامية والفلسفية والعلوم الطبية ، وكان يوحنا بن ماسويه – وهو من كبار الأطباء في القرن الثاني الهجري – يعقد مجلساً للنظر "ويعمر ذلك المجلس بعلم هذا الشأن أتم عمارة ، ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة ، واجتمع اليه أهل العلوم والأدب ، وكان يدرس ويجتمع اليه تلاميذ كثيرون"[٢].

وبلغت عناية العلماء والمتأدبين بنسخ الكتب وترويجها مبلغاً كبيراً، وكان من جملة المزايا التي يوصف بها العالم أو المتأدب أن يقال عنه انه يشتري الكتب، من ذلك ما وصف به همام بن منبه المتوفى سنة ١٣١هـ :

---

[١] الامامة والسياسة : ١٨٨/٢.

[٢] القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ٢٤٩ ، وقارن بتأريخ مختصر الدول ١٣١ .

"همام بن منبه اليماني صاحب أبي هريرة . كان من أبناء المائة ... كان يغزو فجالس أبا هريرة. وكان يشتري الكتب لأخيه وهب..."[١].

علوم القرآن والقراءات

شهد القرن الثاني الهجري بدايات جيدة في تفسير القرآن، وان لم يصلنا شيء مما ألف في هذا الفن من فنون المعارف الدينية. وينسب إلى أبي حمزة الثمالي كتاب تفسير، وكان أبو حمزة – واسمه ثابت بن دينار – من أصحاب الامام علي عليه السلام، ووصفه ابن النديم بأنه "من النجباء الثقات، وصحب أبا جعفر"[٢] يعني الإمام أبا جعفر محمداً الباقر عليه السلام ونسب إلى الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام كتاب في تفسير القرآن رواه عنه أبو الجارود زياد بن المنذر رئيس الجارودية الزيدية[٣].

ومن التفاسير المبكرة للقرآن تفسير لزيد بن أسلم رواه عنه ابنه عبد الرحمن . وكان زيد عالماً فقيهاً روى عن ابن عمر وسلمة بن الأكوع وأنس وأضرابهم[٤]. ويبدو أن معظم هذه التفاسير لم تكن مستكملة لآي القرآن كلها، وربما اقتصرت على بعض السور والآيات، والباحث في التفاسير المتأخرة عن القرن الثاني الهجري وبخاصة التفسير الكبير لابن جرير الطبري وغيره يمكن ان يلتقط من أقوال العلماء وأصحاب اللغة والفقه من

---

[١] شذرات الذهب : ١٨٢/١ .

[٢] الفهرست : ٣٦ .

[٣] الفهرست : ٣٦ .

[٤] شذرات الذهب : ١٩٤/١ .

الصحابة والتابعين وتابعي التابعين الذين أدركوا القرن الثاني الهجري ما يعزز الرأي المتقدم .

وظهرت أغلب القراءات المعتمدة في هذه الفترة من تاريخ الحضارة الإسلامية، وفي سنة ١٢٨هـ توفي عاصم بن أبي النجود الكوفي الأسدي، وكان أحد القَراء السبعة، ووصف بأنه حجة في القراءات، قرأ على أبي عبد الرحمن السلمي وغيره[١]. ومن القراء السبعة نافع بن أبي نعيم وكنيته أبو عبد الرحمن، توفي في سنة ١٦٩هـ، وهو قارئ أهل المدينة "وكان إذا قرأ يُشمّ من فيه ريح المسك"[٢]. ومن القراء علي بن حمزة الكسائي اللغوي المشهور ، وما خالف فيه الكسائي حمزة فهو بقراءة ابن أبي ليلى الذي كان يقرأ بحرف الإمام علي عليه السلام. وكان الكسائي من قراء مدينة السلام يقرئ الناس في أول أمره بقراءة حمزة ثم اختار لنفسه قراءة فأقرأ بها الناس في خلافة هارون[٣].

وظهر في هذه الفترة قراء الألحان، واللحن هو تنغيم في الصوت، وكانوا يرتلون القرآن بأنغام معينة ويعد تجويد القرآن في العصور المتأخرة امتداداً لقراءة الألحان في القرن الثاني الهجري . ولهذا النمط من القراءة النغمية – إذا صح التعبير – جذور قبل القرن الثاني، وذكر ابن قتيبة[٤] أن أول من قرأ بالالحان عبد الله بن أبي بكرة، "وكانت قراءته حزناً ليست

---

[١] شذرات الذهب : ١/١٧٥ .

[٢] شذرات الذهب : ١/٢٧٠ .

[٣] الفهرست : ٣٢ .

[٤] المعارف : ٢٣٢ .

على شيء من ألحان الغناء ولا الحُداء فورث ذلك عنه ابن ابنه عبد الله بن عمر بن عبد الله ، فهو الذي يقال له قراءة ابن عمر".

وأُعجب بعض العباسيين بقراءة الألحان ، ويروى عن هارون الرشيد إعجابه الشديد بقراءة سعيد العلاف "وكان يحظيه ويعطيه ويعرف بقارئ أمير المؤمنين"[١]، وهي أول إشارة صريحة إلى مثل هذه الوظيفة ذات الصفة الدينية ، يضاف إلى ذلك أنها تتضمن محتوى التوظيف الديني من الدولة الذي شاع كثيراً في العصر العباسي .

وهناك اشارة أخرى تذكر أن ألحان هذه القراءات كانت مزيجاً من ألحان الغناء والحُداء[٢]. قال ابن قتيبة[٣] "... كان القراء كلهم : الهيثم وأبان وابن أعين وغيرهم يدخلون في القراءة من ألحان الغناء والحداء والرهبانية ، فمنهم من كان يدس الشيء من ذلك دساً رقيقاً ، ومنهم من كان يجهر بذلك حتى يسلخه . فمن ذلك قراءة الهيثم (أما السفينةُ فكانت لمساكينَ يعملون في البحر)[٤] سلخه من صوت الغناء كهيئة :

أما القطاة فإني سوف أنعتُها نَعتاً يوافق نَعْتي بعضَ ما فيها

وكان ابن أعين يدخل الشيء ويخفيه ، حتى كان الترمذي محمد بن سعد فإنه قرأ على الأغاني المولّدة المحدثة سلخها في القراءة بأعيانها".

---

[١] المعارف : ٢٣٢ .

[٢] الحَدْو : سَوْقَ الإبل والغناء لها ، وقد حدا الإبلَ من باب عدا .

[٣] المعارف : ٢٣٢ .

[٤] الكهف : ٧٩ .

الحديث

علم الحديث وروايته والفروع المتصلة به من الأصول الأساسية في التشريع الإسلامي. وهو من العلوم التي شهدت التدوين المبكر . قبل القرن الثاني الهجري. وعني المسلمون بجمع الحديث وروايته وتدوينه وإخضاع متنه وأسانيده الى تفحص دقيق لتمييز الصحيح من الموضوع ومراتب الصحيح وأنواعه ونقد رجال السند وما أشبه ذلك مما يدخل عادة ضمن علم عرف بعلم الجرح والتعديل. واستغرقت علوم الحديث مدة من الزمن لتصل إلى استكمال أدواتها ووضع أصولها وفروعها .

ولما كان الحديث يمثل الأصل الثاني بعد الكتاب العزيز من أصول التشريع حظي باهتمام كبير من لدن الخلفاء. وإذا تركنا الأسباب الظاهرية لهذا الاهتمام – وهي أسباب دينية – نجد أسباباً أخرى أهم ذات صفة سياسية وإدارية، فالخلفاء كانوا يحتاجون إلى دعم تشريعي من الفقهاء، وهو أمر يلاحظ كثيراً في العصرين الأموي والعباسي، وكان هؤلاء يعانون من تنظيم بعض الأمور الاقتصادية المتعلقة بالضرائب؛ فالخَراج – على سبيل المثال – من تلك الأمور نظرا لاتساع رقعة الدولة واختلاف شعوبها وتباين السنين المحلية مع السنة الهجرية القمرية المتخذة أساساً لجباية الخراج واختلاف الأراضي وأنواع الحاصلات والتوازن بين ما تحتاجه الدولة حقيقة وما يمكنها أن تجبيه من هذه الضريبة في الواقع ، ذلك كله دفع إلى تفاهم بين الخلفاء والفقهاء أو بتعبير دقيق بين الخلفاء وفقهاء الدولة ورأينا كيف ألف أبو يوسف القاضي كتابا في الخراج وتنظيمه لهارون الرشيد .

وذكر الواقدي عن هشام بن عبد الملك انه بعث الى بعض فقهاء المدينة ليكتب له عن سنن الحج[١]، وفي سنة ١١٧هـ مات فقيه المدينة أبو عبد الله نافع الديلمي مولى عبد الله بن عمر وكان عمر بن عبد العزيز قد بعثه إلى مصر يعلمهم السنن[٢]. ورحل الرشيد بولديه الأمين والمأمون إلى المدينة لسماع المُوّطأ على مالك، وكان أصل المُوّطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين[٣].

أما التأليف في مجاميع الحديث فترد الإشارات دائماً إلى كتاب المُوّطأ لمالك بن أنس، ويعد المُوّطأ في رأي كثير من المحققين أول كتاب جامع لأحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مرتب على الموضوعات إلاّ أن محاولات قد جرت قبل مالك في جمع أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي محاولات وان لم تصل الينا لا تقل أهمية عن كتاب المُوّطأ. منها ما ينسب إلى معمر بن راشد الأزدي المتوفى في رمضان سنة ١٥٣هـ ، "وهو أول من ارتحل في طلب الحديث الى اليمن فلقي بها همام بن منبه صاحب أبي هريرة . وله الجامع المشهور في السير أقدم من المُوّطأ "[٤].

وبعد ظهور المدارس الفقهية في العراق وانقسام الفقهاء الى أصحاب الرأي والقياس، وأصحاب الحديث والسنن، لاحظنا مقدار ما كان يوصف به الفقيه من ميله إلى الحديث وأخذه به في التشريع وتفضيله على

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ٣٦/٧.

[٢] شذرات الذهب : ١٥٤/١ .

[٣] تأريخ الخلفاء : ٢٩٤ .

[٤] شذرات الذهب : ٢٣٥/١.

الأصول الأخرى كالرأي والقياس والاستحسان ، حتى لقب الشافعي حين قدم العراق (بناصر الحديث)[1].

الفقه

شهد القرن الثاني الهجري ظهور المدارس الفقهية في العراق والحجاز ، ووضع الأصول والأحكام والقواعد العامة لعلم أصول الفقه والمسائل الخلافية . ويكفي أن نشير الى أن أقطاب الفقه في التشريع الإسلامي قد عاشوا ضمن هذه الفترة الزمنية ، وكان الفقهاء وغيرهم من العلماء عيالاً على أئمة أهل البيت عليهم السلام ، ولاسيما الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) إذ تتلمذ أبو حنيفة على الصادق عليه السلام وقوله المشهور "لولا السنتان لهلك النعمان" دال على ذلك ، وتتلمذ عليه أيضاً مالك، ومن مالك وأبي حنيفة وصل الفقه إلى كل من أحمد بن حنبل والشافعي .

وكانت العناية بالمعارف الفقهية كبيرة جداً، ولقيت ترحيباً من الخلفاء لاحتياجهم الى تنظيم العلاقات المختلفة داخل الدولة المترامية الأطراف ، وكان من جملة هذا الترحيب تشجيع أبنائهم على تعلم الفقه وتدارسه ، ومما نصح به المنصور ابنه المهدي ، قوله "يا بني بلغني إقبالك على مقاتل[2]، فسرني ذلك ، وإنك إنما تعمل غداً بما تسمع اليوم، فلا تقبل على مقاتل، واقبل على الحسن بن عمارة للفقه، وعلى محمد بن

---

[1] النووي : تهذيب الأسماء واللغات ٥١/١ .

[2] أبو الحسن مقاتل بن سليمان ، من المفسرين والمحدّثين . حّدث ببغداد ، وتوفي سنة ١٥٠هـ .

إسحاق للمغازي". وكان المأمون من أكثر الخلفاء ولعاً بالمناظرة ، ويذكر عنه أنه خصص يوم الثلاثاء من كل أسبوع مجلساً للمناظرة في الفقه[١].

وبرزت في القرن الثاني الهجري جماعة من الفقهاء وكان بعضهم يختارون قضاة للدولة منهم حماد بن أبي سليمان ، وعنه أخذ أبو حنيفة بعض المسائل في الفقه والحديث وتوفي سنة ١٢٠هـ[٢]. ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، ولي القضاء لبني أمية والعباسيين ، وكان يفتي بالرأي قبل أبي حنيفة ومات سنة ١٤٨هـ وهو يلي القضاء لأبي جعفر . وله من الكتب : كتاب الفرائض[٣]. ومن الفقهاء الذين كانوا يأخذون بالرأي ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وقيل له ربيعة الرأي لأنه كان يتقوى بالرأي. سمع أنساً وابن المسيّب وكانت له حلقة للفتوى. وأخذ عنه مالك وغيره[٤]. وبلغ التأليف في موضوعات الفقه والمعارف الأخرى ووضع الكتب والرسائل مبلغاً كبيراً بظهور الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، وينسب اليه وضع خمسمائة رسالة في العلم ، جمعها تلميذه جابر بن حيان في كتاب بلغ ألف ورقة[٥]. واهتم الإمام جعفر بن محمد عليه السلام اهتماما كبيراً بالعلوم والمعارف المختلفة ، ومن الأئمة الذين أدركوا القرن الثاني الهجري موسى بن جعفر عليه السلام وابنه علي بن موسى الملقب بالرضا عليه السلام ، وكان لهما تلاميذ كثيرون ورواة دونوا كثيراً من

---

[١] مروج الذهب : ١٩/٤ ، وتاريخ الخلفاء : ٣٢٧ .

[٢] الفهرست : ٢٥٦ .

[٣] الفهرست : ٢٥٦ .

[٤] شذرات الذهب : ١٩٤/١ .

[٥] شذرات الذهب : ٢٢٠/١ .

أصولهم ومسائلهم في كتب ورسائل . منهم يونس بن عبد الرحمن ، وهو من أصحاب موسى بن جعفر عليه السلام كان كثير التصنيف والتأليف ، وله من الكتب : كتاب علل الأحاديث وكتاب الصلاة ، وكتاب الصيام ، وكتاب الزكاة ، وكتاب الوصايا والفرائض، وكتاب جامع الآثار[١]. وأحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي ، وهو من أصحاب موسى بن جعفر عليه السلام أيضاً، وله من الكتب: ما رواه عن الرضا، وكتاب الجامع ، وكتاب المسائل[٢]. ومن أصحاب الرضا عليه السلام أبو عبد الله محمد بن خالد البرقي وله من الكتب: كتاب العويص، وكتاب التبصرة ، وكتاب المحاسن، وكتاب الرجال فيه ذكر من روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وقال ابن النديم[٣] عن كتاب المحاسن: "قرأت بخط أبي علي بن همام، قال : كتاب للبرقي يحتوي على نيف وسبعين كتاباً، ويقال على ثمانين كتاباً" . ومن كتبه: كتاب المحبوبات، وكتاب المكروهات، وكتاب طبقات الرجال ، وكتاب فضائل الأعمال، وكتاب فضائل القرآن، وكتاب الأوامر والزواجر .

وكان أبو حنيفة النعمان بن ثابت الذي ينسب إليه مذهب الحنفية في الفقه وصاحب الرأي والقياس من أعلام الفقهاء في القرن الثاني الهجري . ولد سنة ٨٠هـ وعاصر آواخر الدولة الأموية ويبدو أنه اشتهر فيها فقيهاً بدليل أن يزيد بن عمر بن هبيرة أراده قاضياً – وفي رواية على بيت المال

---

[١] الفهرست : ٢٧٦ .

[٢] الفهرست : ٢٧٦ .

[٣] الفهرست : ٢٧٦ .

– فأبى[1]. وفي خلافة المنصور أراد ان يوليه القضاء فرض. وتوفي ببغداد سنة ١٥٠هـ. وله من الكتب : كتاب الفقه الأكبر، وكتاب رسالته إلى البستي، وكتاب العالم والمتعلم ، وكتاب الرد على القدرية[2].

ومن أعلام الفقهاء في هذه الفترة الأوزاعي، أبو عمر عبد الرحمن بن عمرو . فقيه الشاميين توفي في صفر من سنة ١٥٧هـ ببيروت ، ووصف بأنه "كان رأساً في العلم والعمل ، جم المناقب ، ومع علمه كان بارعاً في الكتابة والترسل"[3]. وسمع من يحيى بن أبي كثير[4].

ومن أصحاب الرأي الذين عاصروا أبا حنيفة وصاحبوه زفر بن الهذيل بن قيس من بني العنبر، وكان يلقب بزفر صاحب الرأي. سمع الحديث وغلب عليه الرأي . مات بالبصرة سنة ١٥٨هـ "وكان ثقة في الحديث موصوفاً بالعبادة . نزل البصرة وتفقهوا عليه"[5].

ومن أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك ، وإليه ينسب المذهب المالكي . ولد في آواخر القرن الأول الهجري باختلاف في سنة ولادته اذ ذكروا السنوات : ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧ تواريخ لولادته[6]. وتوفي بالمدينة سنة ١٧٩هـ ودفن بالبقيع[7]. وكان مالك يجل

---

[1] تهذيب الأسماء واللغات : ٢٢٣/٢ .

[2] الفهرست : ٢٥٦ .

[3] شذرات الذهب : ٢٤١/١ .

[4] المعارف : ٢١٧ .

[5] شذرات الذهب : ٢٤٣/١.

[6] تهذيب الأسماء واللغات : ٧٩/٢ .

[7] المعارف : ٢١٨ .

الحديث ، ويروى عنه أنه إذا أراد أن يجلس للحديث اغتسل وتبخر وتطيب ، فان رفع أحد صوته في مجلسه قال : قال الله تعالى "يا أيهّا الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتَكم فوق صَوْتِ النبيّ"(*) فمن رفع صوته عند حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)(١). ومالك هو أول من وضع كتاباً جامعاً لأحاديث الرسول قد وصلنا، وهو كتاب المُوّطأ ، وبه فتح الباب لكتب الصحاح والأسانيد التي وضعت فيما بعد. وذاع صيت هذا الكتاب وبلغت شهرته مدينة بغداد حتى رغب الرشيد في سماعه من مالك نفسه ورحل في طلبه إلى المدينة ، ووصف لنا المؤرخون هذه الرحلة النادرة بقوله "... انه لما كانت سنة ١٧٤هـ خرج هارون حاجاً إلى مكة ، فقدم المدينة زائراً قبر النبي (عليه الصلاة والسلام) فبعث إلى مالك بن أنس، فأتاه ، فسمع منه كتاب المُوّطأ، وحضر ذلك اليوم فقهاء الحجاز والعراق والشام واليمن..."(٢).

ويبدو أن مالكاً كان يفضل الحديث على الرأي والقياس ، وترد بعض الإشارات تفيد بأنفته من فقهاء الرأي والقياس ، ويذكر بهذا الشأن اجتماعه مع أبي يوسف القاضي عند الرشيد – وهو في زيارته للمدينة – إذ طلب أبو يوسف من الرشيد أن يجمع بينه وبين مالك ليكلمه في الفقه. "فقال الرشيد لمالك : كلمة يا أبا عبد الله ، فأنف من ذلك مالك، وتنزه

(*) الحجرات : ٢ .

(١) تهذيب الأسماء واللغات : ٧٦/٢ .

(٢) الإمامة والسياسة : ١٨٣/٢ .

عنه..."[1]. وينسب الى مالك – سوى كتاب المُوّطأ – كتاب رسالته إلى الرشيد[2].

ومن أصحاب مالك الذين أخذوا منه ورووا عنه[3]:

١. القعنبي ، عبد الله بن سلمة بن قعنب الحارثي : روى عن مالك أصوله وفقهه وموطأه . مات سنة ٢٢١هـ .

٢. عبد الله بن وهب : روى عن مالك كتبه وسننه وموطأه .

٣. معن بن عيسى القزاز : من أصحاب مالك، وأخذ عنه وروى كتبه ومصنفاته.

٤. داود بن أبي زنبر وابنه سعيد : رويا عن مالك .

٥. أبو بكر وإسماعيل ابنا أبي أُويس .

٦. مغيرة بن عبد الرحمن الحرسي .

٧. عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله .

٨. عبد الله بن عبد الحكم المصري : روى عن مالك كتاب السنة في الفقه .

٩. عبد الرحمن بن القاسم : من أهل مصر، روى عن مالك وأخذ عنه .

١٠. أشهب بن عبد العزيز : من أهل مصر، روى عن مالك .

ومن فقهاء الرأي والقياس الذين لازموا أبا حنيفة واشاعوا مذهبه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم. كان حافظاً للحديث يروي عن الأعمش وهشام بن عروة ، ثم لزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأي ، وولي القضاء ببغداد . ولم

---

[1] الإمامة والسياسة : ١٨٥/٢ .

[2] الفهرست : ٢٥١ .

[3] الفهرست : ٢٥١ ، ٢٥٢ .

يزل بها حتى مات في خلافة الرشيد[1] سنة ١٨٢هـ . وأبو يوسف أول من تلقب بقاضي القضاة كما أشرنا الى ذلك فيما تقدم . ويعد من أوائل الذين وضعوا الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة وأملى المسائل ونشرها[2]. وله من الكتب في الأصول والآمالي : كتاب الصلاة ، وكتاب الزكاة ، وكتاب الصيام ، وكتاب الفرائض ، وكتاب البيوع ، وكتاب الحدود، وكتاب الوكالة ، وكتاب الوصايا ، وكتاب الصيد والذبائح ، وكتاب الغصب والاستبراء .

ولأبي يوسف إملاء رواه بشر بن الوليد القاضي ، وله : كتاب اختلاف الأمصار، ويظهر أنه في اختلاف الفقهاء، وكتاب الرد على مالك بن أنس ، وكتاب رسالته في الخراج إلى الرشيد، وكتاب الجامع ، ألفه ليحيى بن خالد البرمكي ، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به[3].

وكان محمد بن الحسن الشيباني من كبار فقهاء الحنفية الذين روجوا لفقه أبي حنيفة وأصوله . ولد بواسط ، ونشأ بالكوفة ، وطلب الحديث، وسمع من مسعد بن كدام ومالك بن مسعود وعمرو بن ذر والأوزاعي والثوري. وجالس أبا حنيفة وأخذ عنه فغلب عليه الرأي ، وقدم بغداد ونزلها وسمع منه الحديث وأخذ عنه الرأي، وخرج إلى الرقة فولاه الرشيد القضاء بها ، ثم عزله. ولما خرج الرشيد إلى خراسان صحبه فمات بالري سنة ١٨٩هـ[4].

---

[1] الفهرست : ٢٥٦ .

[2] شذرات الذهب : ٣٠١/١ .

[3] الفهرست : ٢٥٧ .

[4] الفهرست : ٢٥٧ .

ونزل محمد بن الحسن عند قدومه بغداد بباب الشام في درب أبي حنيفة يقرأ عليه كتبه ، وحدثت بينه وبين الراوندية مشاغبات. ويبدو أن هؤلاء كان لهم جماعة من الأنصار بعد محاولتهم الغامضة قتل المنصور. وكان كبيرهم يدعى (الراوندي) وينسب اليه كتاب عمله في (الدولة) أي في الدولة العباسية، وسمي أتباعه بـ(أبناء الدولة) وكان من شأن هذا الراوندي وأصحابه ان يتعمد يوم مجلس محمد بن الحسن في المسجد فيجيء ويقرأ على أتباعه كتاب الدولة، وإذا قرأ رجل من اتباع محمد شيئاً من كتبه صاحوا به وسكتوه واضطر محمد إلى ترك الجلوس في ذلك المسجد وصار إلى المسجد المعلق الذي بباب درب أسد مما يلي ساباط رومي؛ فكانت الكتب تقرأ عليه هناك[1].

والخلاف بين أبي حنيفة والمنصور بشأن محمد ذي النفس الزكية وثورته معروف في كتب التأريخ، وهذا الخلاف جرّ أصحاب أبي حنيفة إلى مخالفة المنصور . ويظهر أن المنصور قد استغل الراوندية بعد فشل محاولتهم وكوّن منهم أتباعاً يتصفون بالتعصب لانفاذ أوامره وسياساته ، ويمكن بذلك أن نرجع المشاغبات التي حدثت بين محمد بن الحسن الشيباني وأصحابه وبين الراوندي وأتباعه إلى تحريض من المنصور على أبي حنيفة وأنصاره من الفقهاء والتلاميذ.

ولمحمد بن الحسن من الكتب : الجامع الكبير ، والجامع الصغير، وكتاب الصلاة، وكتاب الزكاة، وكتاب المناسك، وكتاب النكاح ، وكتاب الطلاق ، وكتاب العتاق وامهات الأولاد ، وكتاب السلم والبيوع، وكتاب

---

[1] الفهرست : ٢٥٧ .

الرهن ، وكتاب الرهن ، وكتاب المزارعة الكبيرة ، وكتاب المزارعة الصغيرة وكتاب الوكالة ، وكتاب العارية ، وكتاب الوديعة[١] الخ ...

ومن أصحاب أبي حنيفة الحسن بن زياد اللؤلؤي ، أخذ عن أبي حنيفة وسمع منه. وتوفي سنة ٢٠٤هـ . وله من الكتب : كتاب المجرد لأبي حنيفة بروايته، وكتاب أدب القاضي ، وكتاب الخصال ، وكتاب معاني الإيمان ، وكتاب النفقات، وكتاب الخراج ، وكتاب الفرائض ، وكتابا الوصايا[٢].

وظهر في القرن الثاني الهجري الشافعي الذي ينسب اليه مذهب الشافعية . وينحدر الشافعي من نسب هاشمي صريح وهو من أعلام الفقهاء . وأصحاب المذاهب الكبيرة . واتفق علماء الأنساب على أن أبا عبد الله محمد بن إدريس كان من وِلْد شافع بن السائب بن عبيد الله بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . وأجمعوا على أنه ولد سنة ١٥٠هـ وتوفي بمصر سنة ٢٠٤هـ[٣]. وذكر عنه أنه لزم محمد بن الحسن سنة حتى كتب كتبه ، وروي عن الربيع بن سليمان عن الشافعي أنه قال: كتبت عن محمد وِقْر[٤] جَمَل كتباً[٥]. وصنف في العراق كتابه القديم المسمى كتاب الحجة ، ويرويه عنه أربعة من كبار أصحابه العراقيين، وهم: أحمد بن حنبل وأبو ثور والزعفراني والكرابيسي. وأتقنهم له رواية

---

[١] الفهرست : ٢٥٧ .

[٢] الفهرست : ٢٥٨ .

[٣] الفهرست : ٢٦٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات : ٤٢/١ .

[٤] الوِقْر : حِمْل البغل أو الحمار ويستعمل في البعير. المصباح المنير: ٦٦٨ .

[٥] الفهرست : ٢٦٣ .

الزعفراني[1]. ولما قدم مصر سنة ١٩٩هـ أو سنة ٢٠٠هـ صنف فيها معظم كتبه الجديدة . وكان كتابه المسمى (الرسالة) من أكثر كتبه شهرة لدى الفقهاء ، وكان هذا الكتاب موضع إعجاب كثير من أهل الفقه ، منهم عبد الرحمن ويحيى بن سعيد . وكان القطّان وأحمد بن حنبل يدعوان له في صلاتهما[2].

أما كتابه المسمى (الأُمّ) فهو من أكبر كتبه حجما واستيعابا لأبواب الفقه ، ويقع في نحو خمسة عشر مجلدا. وذكر المؤرخون ممن ترجموا للشافعي أنه ترك تراثا ضخما من الكتب والرسائل في التفسير والفقه والأدب وغير ذلك ، بلغت مائة وثلاثة عشر كتابا[3]. ومن أشهر كتبه سوى الرسالة والأُمّ : كتاب المبسوط في الفقه . رواه عنه الربيع بن سليمان والزعفراني. ويحتوي هذا الكتاب على : كتاب الطهارة، وكتاب الصلاة،وكتاب الزكاة، وكتاب الصيام، وكتاب الحج ، وكتاب الاعتكاف .

ومن كتبه أيضاً: كتاب الطهارة، وكتاب استقبال القبلة، وكتاب الجمعة ، وكتاب العيدين، وكتاب صلاة الخسوف، وكتاب أحكام القرآن، وكتاب المناسك، وكتاب البيوع[4].

ومن مؤسسي المذاهب الفقهية الكبرى أبو عبد الله أحمد بن حنبل. ولد سنة ١٦٤هـ ببغداد، ونشأ بها، ودخل مكة والمدينة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة ، وتوفي ببغداد سنة ٢٤١هـ[1].

---

[1] تهذيب الأسماء واللغات : ٤٨/١.

[2] انظر تهذيب الأسماء واللغات : ٤٧/١ .

[3] تهذيب الأسماء واللغات : ٥٣/١ .

[4] الفهرست : ٢٦٤ .

وفي آواخر القرن الثاني الهجري اشتهر فقيه ومحدث اتصف بالجرأة على مجابهة السلطان هو سفيان بن سعيد بن مسروق . ويظهر أنه عُمّر طويلاً إذ أدرك أواسط القرن الثالث ويذكر أنه توفي بالبصرة متواريا عن السلطان سنة ٢٦١هـ[٢]. وكان له منحىً في الفقه والحديث حتى وجد في أواخر القرن الرابع سفيانيون[٣]. وكانت له مؤلفات عديدة من كتب ورسائل يبدو أنها أتلفت، فقد ذكر المؤرخون أن سفيان مات وله مائة وخمسون ديناراً بضاعة فأوصى إلى عمارة بن يوسف في كتبه فمحاها وأحرقها .

---

[١] تهذيب الأسماء واللغات : ١/١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ .

[٢] المعارف : ٢١٧ ، ٢١٨ .

[٣] شذرات الذهب : ١/٢٥١ .

الفصل السادس
اللغة والادب

اللغة

اتسع الدرس اللغوي في القرن الثاني الهجري، وبحث العلماء كثيراً من المسائل التي أصبحت فيما بعد أُصولاً لموضوعات النحو واللغة والصرف . وكانت طبيعة الدراسات في هذه المرحلة مختلفة أي غير مميزة، بمعنى أننا نجد مسائل من النحو تبحث مع موضوعات صرفية أو لغوية، وتختلط بهما دراسات صوتية تبحث في الحروف ومخارجها وصفاتها وما يتعلق بذلك من ظواهر صوتية في بنية الكلمة من إعلال وإبدال وإدغام وغيرها .

والناظر في كتاب سيبويه – الذي يمثل لنا قمة الدراسات اللغوية في القرن الثاني الهجري – يلاحظ هذا الاختلاط في بحث المستويات اللغوية، ويجد أيضاً أن بعض المصطلحات اللغوية قد ذكرت، وبعضها قد شرحت دون تحديد للفظ الذي يطلق على المصطلح المعين وجمع كتاب سيبويه جمهرة من المسائل والمباحث وبذلك أصبح اساساً لجميع الدراسات اللغوية فيما بعد القرن الثاني الهجري .

وظهر الجيل الأول من علماء اللغة المختصين في القرن الثاني الهجري، وانتشرت حلقات الدرس في المساجد والمجامع الخاصة، ورحل العلماء الى البادية، والتقوا الأعراب وجمعوا الألفاظ ومعانيها المختلفة وبعض الأصول والقواعد في تركيب الكلام ، وأملوا في مجالسهم الكتب والرسائل. وكان الحفظ وتلقي الرواية الشفوية المعيار الأول لجودة المتعلم وحسن تعلمه، وفضل العالم وشهرته.

ويلقانا عدد من هؤلاء العلماء ، كان من أوائلهم عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة ١٤٩هـ[١]، ويعد من طبقة أبي عمرو بن العلاء ، وهو بصري من مقدمي نحاة البصرة . أخذ عنه الخليل بن أحمد . ونسب إليه عمل كتابين في النحو أحدهما يسمى (الإكمال) ، والآخر يدعى (الجامع) وإن كان الشك والغموض يحيطان بهذين الكتابين ، فلم يرد في المصادر سوى اسميهما ، وتذكر بعض هذه المصادر بيتين من الشعر للخليل ذكر فيهما الكتابين ، وهما قوله :

بطل النحوُ جميعاً كَلَّه غَيْرَ ما أحدث عيسى بن عُمَرْ

ذاك إكمال وهذا جامعُ فهما للناس شمس وقَمَرْ

ويعد الخليل بن أحمد الفراهيدي اشهر علماء الجيل الأول . وينسب اليه عمل أول معجم في التراث العربي. ووصف بأنه "كان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس"[٢].

ووقع في بعض المصادر أن حنين بن إسحاق الطبيب كانت له صحبة مع الخليل[٣]. ومن المعروف أن حنيناً كان سريانياً نقل الطب وعلوم الفلسفة من اليونانية إلى العربية عن طريق السريانية لذلك ظن بعض الباحثين المحدثين – ومنهم مستشرقون – أن صحبة حنين للخليل جعلت الأخير متأثراً بالمنطق اليوناني وانعكس ذلك على وضع بعض الأصول اللغوية والنحوية في العربية باعتبار أن الخليل يمثل رائدا

---

[١] الفهرست : ص٤٧ .

[٢] الفهرست : ٤٨ .

[٣] ابن أبي أُصيبعة : عيون الأنباء ، ١٤٦/٢ ، وإخبار العلماء : ١١٤ .

للدراسات اللغوية المبكرة في التراث العربي . وتذكر هذه المصادر أن حنيناً التقى الخليل في البصرة وتعلم منه اللسان العربي وأدخل كتاب العين بغداد، وأنه كان يشتغل في العربية مع سيبويه وغيره ممن كانوا يشتغلون على الخليل بن أحمد . وتضيف أن "هذا لا يبعد ، فإنهما كانا في وقت واحد على زمان المأمون ، وأننا نجد في كلامه وفي نقله ما يدل على فصاحته وفضله في العربية وعلمه بها حتى ان له تصانيف في ذلك"[١].

وهذا الوهم الذي وقعت فيه بعض المصادر (ربما انفرد به ابن القفطي وابن أبي أُصيبعة) مرجعه إلى أنهم جعلوا حنيناً معاصراً للخليل، والغريب أنهم نصوا على أن وفاة حنين حدثت سنة ٢٦٠هـ أو ٢٦٤هـ وحددوا يوم الوفاة بيوم الثلاثاء، وشهر الوفاة بست خلون من صفر[٢].

ومن المحقق تاريخياً أن وفاة الخليل بن أحمد قد حدثت بعد النصف الأول من القرن الثاني الهجري باختلاف في سنة الوفاة بين ثلاث روايات، هي سنة ١٦٠هـ وسنة ١٧٠هـ وسنة ١٧٥هـ[٣]. وأن مولد حنين بن إسحاق كان في سنة ١٩٤هـ ، وبذلك يكون حنين قد ولد بعد وفاة الخليل بأربع وثلاثين سنة إذا اتخذنا سنة ١٦٠هـ تاريخاً لوفاة الخليل، أو بتسع عشرة سنة إذا اتخذنا عام ١٧٥هـ تاريخاً لوفاة الخليل. فلم يدرك الخليل حنيناً، فكيف اتفقت لبعض المصادر أن تجمع بينهما؟ يظهر أن السبب في ذلك أنهم نقلوا من مصدر واحد واهم فوقعوا هم كذلك في هذا الوهم ودرجوا

---

[١] عيون الأنباء : ١٤٦/٢ .

[٢] عيون الأنباء : ١٤٨/٢ ، وإخبار العلماء : ١١٩ ، وابن قنفذ القسنطيني: كتاب الوفيات ١٨٢ .

[٣] السيوطي : بغية الوعاة ، ٥٦٠/١ .

عليه. وجاء بعض الباحثين المحدثين وبنوا رأياً على تأثر النحو العربي بالنحو السرياني أو بالمنطق اليوناني مستندين على بعض الأسس منها هذا الأساس الباطل من صحبة حنين للخليل . ونحن لا نزعم إلغاء فكرة التأثير والتأثر، فالنحو العربي شأنه في ذلك شأن جميع الثقافات قد اثر وتأثر ويجب أن نعتمد في إثبات ذلك على دعائم قوية يمليها الاستقراء لمفرداته وموضوعاته في ضوء التطور التأريخي والمقارنة بالدراسات اللغوية لليونانية والسريانية وجمع الأشباه والنظائر وإثبات مدى التأثير والتأثر مع ملاحظة أن الدراسات اللغوية قد تشترك في بعض الأصول وبخاصة اللغات التي تنتمي الى فصيلة واحدة كالعربية والسريانية والعبرية وأن هذه الأصول لا تمثل بالضرورة تأثيراً أو تأثراً.

وكان الخليل بن أحمد من الأوائل الذين فكروا في وضع معجم لمفردات اللغة، ونسب اليه كتاب العين الذي يعد أول معجم جامع لمفردات العربية مرتب على أساس مخارج الحروف وتقاليب الكلمات، وقد بدأ فيه بحروف الحلق وانتهى الى حروف الشفتين لذلك سمي بالعين، لأن العين تمثل عند الخليل أقصى حروف الحلق.

وقد ساد الشك في نسبة الكتاب إلى الخليل حتى ذكر أنه "لم يرو هذا الكتاب عن الخليل أحد ولا رؤي في شيء من الأخبار أنه عمل هذا ألبته"[1]. وقيل إن الخليل بدأ في عمله وعلّم الليث – وهو من ولد نصر بن سيار – طريقته ، فأتمه الليث بعد موته، وروي عن الليث قريب من هذا المعنى، قال "كنت أصير الى الخليل بن أحمد، فقال لي يوماً لو أن إنساناً

---

[1] الفهرست : ٤٨ .

قصد وألف حروف ألف با وتا وثا على ما أمثله لأستوعب في ذلك جميع كلام العرب وتهيأ له أصل لا يخرج عنه شيء منه بتة. قال : فقلت له وكيف يكون ذلك، قال : يؤلفه على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وأنه ليس يعرف للعرب كلاماً أكثر منه. قال الليث : فجعلت استفهمه ويصف لي ولا أقف على ما يصف، فأختلف إليه في هذا المعنى أياماً. ثم اعتلّ ، وحججت، فما زلت مشفقا عليه وخشيت أن يموت في علته فيبطل ما كان يشرحه لي . فرجعت من الحج وصرت إليه فإذا هو قد ألف الحروف كلها على ما في صدر هذا الكتاب. فكان يُملي عليَّ ما يحفظ وما شك فيه يقول لي سل عنه فاذا صحّ فأثبته الى أن عملت الكتاب"[1].

ومن الراجح أن للخليل عملاً في هذا الكتاب لا يمكن إنكاره ، فالفكرة والمنهج والترتيب له، أما المادة ففيها شيء كثير من أقوال الخليل وآرائه. وربما أضيفت أشياء أخرى إلى الكتاب فيما بعد ، أضافها الليث أو غيره.

ويبدو أن شهرة كتاب العين ومدى استعماله لدى العلماء قد تأخرت عن وفاة الخليل مدة ليست بالقليلة. وهناك رواية تربط بين وجود الكتاب عند الليث وانتقاله الى العراق نسبت إلى أبي بكر بن دريد. قال "وقع بالبصرة كتاب العين سنة ٢٤٨هـ . قدم به ورّاق من خراسان وكان في ثمانية وأربعين جزءاً فباعه بخمسين ديناراً . وكنا نسمع بهذا الكتاب أنه بخراسان في خزائن الطاهرية، حتى قدم به هذا الورّاق"[2].

---

[1] الفهرست : ٤٨ .

[2] الفهرست : ٤٨ .

ومما نسب الى الخليل من الكتب سوى العين : كتاب النغم ، وكتاب العروض، وكتاب الشواهد ، وكتاب النقط والشكل ، وكتاب الإيقاع[١].

ومن اللغويين الذين عاصروا الخليل يونس بن حبيب الذي توفي سنة ١٨٣هـ . وكان يونس من أصحاب أبي عمرو بن العلاء ، وكانت حلقته بالبصرة، ينتابها طلاب العلم وأهل الأدب وفصحاء الأعراب ووفود البادية[٢]. وليونس بن حبيب من الكتب : كتاب معاني القرآن ، وكتاب اللغات ، وكتاب النوادر الكبير[٣].

ومنهم أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ١٩٧هـ . وله من الكتب : كتاب معاني القرآن ، وكتاب مختصر النحو، وكتاب القراآت ، وكتاب العدد ، وكتاب النوادر الكبير، وكتاب النوادر الأوسط ، وكتاب النوادر الأصغر، وكتاب مقطوع القرآن وموصوله ، وكتاب اختلاف العدد ، وكتاب الهجاء ، وكتاب المصادر ، وكتاب الهاءات المُكّنى بها في القرآن[٤]. وكان النضر بن شميل من اللغويين الذين عنوا عناية خاصة بالغريب، ووضع في ذلك كتاب الصفات الذي يعد المصدر الذي أخذ منه ابو عبيد القاسم بن سلام في تأليف كتابه الشهير (غريب الحديث) . وذكر

---

[١] الفهرست : ٤٩ .

[٢] الفهرست : ٤٧ .

[٣] الفهرست : ٤٨ .

[٤] الفهرست : ٧٢ .

ابن النديم[1] نقلاً عن أبي الحسن الكوفي ثَبَت كتاب الصفات ، ويحتوي على الموضوعات الآتية:

الجزء الأول: يحتوي على خُلُق الإنسان والجود والكرم وصفات النساء .

الجزء الثاني: يحتوي على الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب والأمتعة.

الجزء الثالث: يحتوي على الإبل فقط .

الجزء الرابع: يحتوي على الغيم والطير والشمس والقمر ، والليل ، والنهار ، والكمأة ، والآبار ، والأرشية ، والدلاء ، وصفة الخمر .

الجزء الخامس: يحتوي على الزرع ، والكرم ، والعنب ، وأسماء البقول ، والأشجار ، والرياح ، والسحاب ، والأمطار .

والتأليف في الغريب من مقدمات معاجم المعاني الذي بلغ غايته عند ابن سيدة في معجمه الضخم المخصص .

وللنضر بن شميل من الكتب: كتاب السلاح، وكتاب خلق الفرس، وكتاب الأنواء ، وكتاب المعاني، وكتاب غريب الحديث ، وكتاب المدخل إلى كتاب العين ، وكتاب المصادر ، وكتاب الجيم ، وكتاب الشمس والقمر.

وألف أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠هـ أو ٢١١هـ في مجاز القرآن وغريب القرآن ومعاني القرآن وإعراب القرآن وغريب الحديث . وكانت له رسائل عديدة في الألفاظ وهي من مقدمات التأليف في معاجم المعاني أيضاً ، ومنها: الخيل، والإبل، والسرج، واللجام، والقوس

---

[1] الفهرست : ٥٧ ، ٥٨ .

والسيف وخلق الإنسان . وكتب رسائل في بعض المظاهر الدلالية في اللغة كالأضداد ، و (اللغات) أي لهجات العرب . وفي موضوعات نحوية كالمصادر ، والجمع والتثنية[1].

وكان أبو عبيدة من اللغويين الذين بكروا في التأليف في لحن العامة والموضوعات المتصلة بالخطأ الشائع على ألسنتهم ووضع رسالة في ما تلحن فيه العامة ، ورسالة أخرى في فعل وأفعل .

وجاء أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ[2] ووضع كتابين عالجا موضوعين من أكثر الموضوعات اللغوية أهمية أحدهما يتصل بالدراسات القرآنية، والآخر يتعلق بالمصطلحات اللغوية .

أما الأول فهو كتاب معاني القرآن وهو من الكتب المتقدمة في هذا المجال، وربما يعدّ من أقدم الكتب التي سلمت من الضياع .

وأما الآخر فهو كتاب في شرح المصطلحات اللغوية وعنوانه (أسماء الحدود). يتضمن هذا الكتاب المصطلحات الأساسية في النحو ، وذكر ابن النديم موضوعاته نقلاً عن نسخة بخط سلمة بن عاصم على الترتيب الآتي:

حَدّ الإعراب في أصول العربية . حد النصب المتولد من الفعل . حَدّ المعرفة والنكرة . حَدّ من ورُبّ . حَدّ العدد. حَدّ منذ ومذ وهل . حَدّ العماد . حَدّ الفعل الواقع . حَدّ إن وأخواتها حَدّ كي وكيلا. حَدّ حتى . حَدّ الإغراء . حَدّ الدعاء . حَدّ النونين الشديدة والخفيفة (ربما الخفية) . حَدّ

---

[1] الفهرست : ٥٩ ، ٦٠ .

[2] الفهرست : ٧٣ ، ٧٤ .

الاستفهام. حَدّ الجزاء . حَدّ الجواب . حَدّ الذي وَمْن وما . حَدّ رُبّ وكم. حَدّ القسم . حَدّ التبرية والتمني. حَدّ النداء . حَدّ الندبة . حَدّ الترخيم . حَدّ أن المفتوحة . حَدّ إذ وإذا وإذاً . حَدّ ما لم يتم فاعله . حَدّ (لو تركت ورأيك). حَدّ الفعل الثلاثي . حَدّ المعرب من مكانين. **حد** الإدغام . حَدّ الهمز . حَدّ الأبنية . حد الجمع . حَدّ المقصور والممدود حَدّ المنكر والمؤنث . حَدّ فعل وأفعل . حَدّ النهي. حَدّ الابتداء والقطع. حَدّ ما يجري وما لا يجري .

ويفهم من موضوعات هذا الكتاب أنه أول مؤلف يجمع طائفة من المصطلحات اللغوية ويشرحها شرحاً يستوفي مقاصد اللغويين في القرن الثاني الهجري . وهو دليل على اتجاه جديد في تحديد المصطلح اللغوي بخاصة ، والبدء بدراسة مصطلحات العلوم والفنون بعامة . وهي محاولة مبكرة جداً في تأليف ما يشبه معاجم المصطلحات التي عرفت في القرون الهجرية المتأخرة كالتعريفات للسيد الجرجاني وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي. ويظهر أن علماء القرن الثاني الهجري كانوا يحتاجون الى تحديد المصطلح الدلالي لكي تتوفر لهم دراسة الموضوعات المختلفة على نحو واضح ومفهم . وربما انفرد الفراء من بين اللغويين في دراسة المصطلح اللغوي لتأثره بمنطق الفلاسفة والمتكلمين في تحديد الأشياء وتعريفها ، وقيل عنه بأنه كان "يتفلسف في تأليفاته وتصنيفاته حتى يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة"[1].

---

[1] الفهرست : ٧٣ .

ومن اللغويين في القرن الثاني الهجري أبو الحسن سعيد بن مسعدة الملقب بـ الأخفش . توفي سنة ٢١١هـ . وكانت له عناية بالشعر والعروض. ونسب اليه من الكتب : كتاب الأوسط في النحو ، وكتاب المسائل الكبير وكتاب المسائل الصغير ، وكتاب القوافي ، وكتاب الملوك ، وكتاب معاني الشعر ، وكتاب وقف التمام ، وكتاب الأصوات ، وكتاب صفات الغنم وألوانها وعلاجها وأسنانها[١].

ويعد الأخفش الطريق الى كتاب سيبويه ، فقد ذكر أن الكتاب لم يقرأ على سيبويه ولا قرّأه سيبويه نفسه ولكنه لما مات قرئ الكتاب على الأخفش ، وكان ممن قرأه عليه أبو عمر الجرمي وأبو عثمان المازني[٢].

وعني أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري المتوفى سنة ٢١٥هـ بكتب الألفاظ ، وصنف في ذلك عدداً من الرسائل ، منها : كتاب الإبل والشاة ، وكتاب المطر ، وكتاب المياه ، وكتاب خلق الإنسان ، وكتاب النبات والشجر ، وكتاب النوادر ، وكتاب الجمع والتثنية ، وكتاب تخفيف الهمز ، وكتاب فعلت وأفعلت ، وكتاب غريب الأسماء ، وكتاب الهمز ، وكتاب المصادر[٣].

وكان عبد الملك بن قُرَيْب الأصمعي المتوفى سنة ٢١٣هـ أو ٢١٧هـ[٤] من اللغويين الذين كتبوا في موضوعات لغوية مختلفة ، منها كتب في الالفاظ ، ومنها كتب في بعض الظواهر اللغوية كالأضداد والقلب

---

[١] الفهرست : ٥٨ .

[٢] الفهرست : ٦٠ .

[٣] الفهرست : ٦٠ .

[٤] الفهرست : ٦٠ ، ٦١ .

والإبدال، والمشترك اللفظي . ومن كتبه في الألفاظ: خَلْق الإنسان، والأثواب ، و خَلْق الفرس ، والخيل والإبل، والشاة ، والأخبية والبيوت ، والوحوش ، والسلاح ، والدلو ، والرَحّلْ ، والنخلة ، والنبات والشجر ، والسَّرْج واللِّجام ، والأصوات ، وأسماء الخمر.

ومن كتبه اللغوية الأخرى : الأجناس ، والأنواء ، والهمز ، والمقصور والممدود ، والفرق ، والصفات ، والميسر والقداح ، وفعل وأفعل، والأمثال ، واللغات ، والاشتقاق ، والنوادر ، والأضداد ، والقلب والإبدال ، وأصول الكلام ، والمصادر ، وما اتفق لفظه واختلف معناه ، وغريب الحديث ، وغريب الحديث والكلام الوحشي . ونوادر الأعراب ، ومياه العرب ، والنسب ، والمذكر والمؤنث، وما تكلم به العرب فكثر في أفواه الناس .

وكانت للأصمعي عناية خاصة بالشعر وروايته ، ونسبت اليه رواية كثير من دواوين الشعراء ، وله في هذا المجال : كتاب الأراجيز ، وكتاب معاني الشعر، وكتاب فحولة الشعراء وهي رسالة صغيرة .

ومن اللغويين في القرن الثاني الهجري : الرؤاسي ، وهو محمد بن أبي سارة . له من الكتب : كتاب الفيصل ، وكتاب التصغير، وكتاب معاني القرآن ، وكتاب الوقف والابتداء الكبير ، وكتاب الوقف والابتداء الصغير[1].

---

[1] الفهرست : ٧١ .

ومنهم : سلمة بن عاصم ، صاحب الفراء وأحد العلماء الكوفيين . روى عن الفراء كتبه كلها . وله من الكتب : كتاب غريب الحديث ، وكتاب الملول في النحو[١].

ومنهم : أبو الحسن الأحمر . أخذ عن الرؤاسي ، وقرأ على الكسائي. له من الكتب : كتاب التصريف[٢] وكان أبو علي محمد بن المستنير الملقب بقُطْرُب من المعلمين والمؤدبين ، فقد علم ولد أبي القاسم بن عيسى . أخذ النحو عن سيبويه وجماعة من العلماء البصريين . وترك كتباً ورسائل في مختلف الفنون اللغوية والأدبية المعروفة في زمانه ، فقد ألف في الألفاظ والنحو والاشتقاق والقوافي ، والنوادر ، والدراسات القرآنية ، والغريب ، والأضداد ، وغيرها.

وله من الكتب المصنفة : كتاب معاني القرآن ، وكتاب إعراب القرآن ، وكتاب الرد على الملحدين في متشابه القرآن ، وكتاب الاشتقاق، وكتاب القوافي ، وكتاب النوادر ، وكتاب الأزمنة ، وكتاب الفرق وكتاب الأصوات ، وكتاب المثلث، وكتاب الصفات ، وكتاب العلل في النحو ، وكتاب الأضداد ، وكتاب خَلْق الفرس ، وكتاب خَلْق الإنسان، وكتاب غريب الحديث ، وكتاب الهمز ، وكتاب فعل وأفعل[٣].

ومن اللغويين المشاركين في التأليف أبو عثمان سعدان بن المبارك مولى عاتكة مولاة المهدي . وله من الكتب : كتاب خَلْق الإنسان، وكتاب الوحوش ، وكتاب الأمثال ، وكتاب النقائض رواه عن أبي عبيدة ، وكتاب

---

[١] الفهرست : ٧٤ .

[٢] الفهرست : ٧٣ .

[٣] الفهرست : ٧٣ .

الأرضين والمياه والجبال والبحار . ذكر ابن النديم[١] انه رأى منه قطعة بخط ابن الكوفي.

ومنهم: نصير بن يوسف ، صاحب الكسائي . وله من الكتب : كتاب الإبل، وكتاب خَلْق الإنسان[٢].

ومنهم: أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي ، وله من الكتب : كتاب النوادر ألفه لجعفر بن يحيى البرمكي ، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب مختصر نحو ألفه لبعض ولد المأمون ، وكتاب النَّقْط والشَّكْل[٣].

وكان الأعراب مصدراً ذا أهمية بالغة للمادة اللغوية ، ولاسيما المفردات ، وكانت وفود العلماء تصل البادية في مواسم معينة لجمع المفردات ومعانيها ، وبذلك تهيأت المادة الأولية للمعجم العربي . وعلى النقيض من ذلك كان بعض الأعراب هم الذي يفدون الى المدينة لأغراض ترتبط بمعيشتهم ، أو لعرض بضاعتهم اللغوية والأدبية ، فكانوا محط سؤال العلماء . ووردت أسماء بعض هؤلاء الأعراب ضمن المشاركين في التأليف اللغوي والأدبي في القرن الثاني الهجري، وكأنهم شعروا بأهمية المادة اللغوية والتدوين فيها فانتقلوا من البادية الى الحاضرة، واتصلوا بالعلماء، وبعضهم وفد على الخلفاء وعرض بضاعته لنيل الجوائز . وتهيأت من ذلك كله مجموعة من الفصحاء واللغويين الأعراب ونكتفي بذكر عدد منهم كما يأتي[٤]:

---

[١] الفهرست : ٧٧ .

[٢] الفهرست : ٧٢ .

[٣] الفهرست : ٥٦ .

[٤] انظر : الفهرست ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .

أبو مالك عمرو بن كركرة ، له من الكتب : كتاب خَلْق الإنسان ، وكتاب الخيل.

أبو زياد الكلابي ، يزيد بن عبد الله . قدم بغداد أيام المهدي . له من الكتب : كتاب النوادر ، وكتاب الإبل ، وكتاب خَلْق الإنسان .

أبو خيرة ، نهشل بن زيد ، له من الكتب : كتاب الحشرات .

أبو محلم الشيباني ، محمد بن سعد، له من الكتب: كتاب الأنواء ، وكتاب الخيل ، وكتاب خَلْق الإنسان .

أبو مِسْحل ، عبد الوهاب بن حَرِيش، له من الكتب : كتاب النوادر، وكتاب الغريب الوحشي .

ابو ثروان العكلي ، له من الكتب : كتاب خلق الفرس ، وكتاب معاني الشعر.

أبو دعامة القيسي . له من الكتب : كتاب الشعر والشعراء .

أبو فَيْد مُؤرّج بن عمرو السدوسي ، له من الكتب : كتاب الأنواء، وكتاب غريب القرآن، وكتاب جماهير القبائل ، وكتاب المعاني .

اللَّحْياني ، علي بن المبارك ، غلام الكسائي . له من الكتب : كتاب النوادر.

الأدب

يمثل القرن الثاني الهجري في تاريخ الأدب عصر ازدهار وتطور للشعر العربي يتلخص في ظهور تيارين ، أحدهما قديم محافظ والأخر مولّد مجدد .

وكان التيار القديم يعد القصيدة الجاهلية من حيث الشكل والمضمون مثالاً يجب المحافظة عليه والاقتداء به . والخروج على هذا

المثال والنمط هو إخلال بالبناء التقليدي للقصيدة العربية وهو خروج على التراث . وقد اصطلح علماء الشعر – فيما بعد – على هذه التقاليد بـ(عمود الشعر) وكأنهم يشيرون إلى أركانه التي يستند اليها أو إلى دعائمه التي ينبغي مراعاتها ، تشبيها بعمود الخيمة الذي لولاه لما أمكن قيامها وثباتها واستواؤها. ونجد في كتب البلاغة والنقد كثيراً من هذه التقاليد كالوقوف على الأطلال ، والتوطئة للمدح بمقدمة غزلية ، ثم التخلص الى الموضوع بأبيات يذكر فيها المادح ما لاقاه في سفره إلى الممدوح من عناء ومشقة ووصف الناقة وسرعة جريها شوقاً للقاء الممدوح ، وما سوى ذلك . ولم يقتصر تقليد القصيدة الجاهلية على جانب المضمون بل تعدى ذلك إلى الألفاظ والتراكيب . وكانت الصفة المميزة للنسج البدوي في تركيب الجملة واستعمال الألفاظ الغريبة التي اصطلح عليها بـ(الوحشي) أو (الحوشي) أو (الغريب) ظاهرة للعيان، والدارس للنصوص الشعرية في القرن الثاني الهجري يجد ذلك واضحاً لدى الرّجاز – مثلاً – كرّؤبة والزَّفيان والعُمَانّي.

أما التيار الآخر وهو التيار المجدد فقد خرج على معظم التقاليد الموروثة للقصيدة العربية شكلاً ومضموناً ، وتخير ألفاظاً سهلة واضحة لها طاقات تعبيرية وإيحاءات دلالية أكثر، وتراكيب جميلة ، وأوزان خفيفة ومجزوءة تجعل القصيدة طيعة للغناء والإيقاع . وانعكست أغلب الاتجاهات الحضارية المتولدة في القرن الثاني الهجري على الشعر ، وأخذ الذوق الأدبي العام يميل الى ترك البنية التقليدية للقصيدة الجاهلية ، وظهر من نادى بذلك صراحة وجرأة كأبي نواس ولذلك نجد الأدباء اللغويين والرواة وأصحاب النقد والبلاغة يضعون لهذه الطبقة المجددة من الشعراء

مصطلحاً يدل على منحاهم في القصيدة العربية ، فأطلق عليهم (المُولّدَون) أو (المّحْدَثون) .

وعني أغلب الخلفاء بالشعر والشعراء . ونظم بعضهم الشعر وأجاد فيه . وروي عن الوليد بن يزيد أنه كان "شاعراً محسناً . له أشعار حسنة في العتاب والغزل ووصف الخمر .... وقد سرق الناس معانيه وأودعوها أشعارهم . فممن سرق معانيه أبو نواس أخذ معانيه في وصف الخمر"[١]. وكان الرشيد يحب الشعر والشعراء ، ويميل إلى أهل الأدب والفقه ، ويفضل المديح على غيره ، ويجزل لهم العطاء. وكانت بغداد في أيامه محط العلماء والأدباء والشعراء وكثر الوافدون إليه حتى قيل إنه "لم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقّراء والقضاة والكتّاب والندماء والمغنيين ما اجتمع على باب الرشيد"[٢]. والمديح هو سبيل الشاعر – في الغالب – للوصول الى الخليفة ونيل جوائزه . وكان الأمويون يفضلون في المديح الصفات البدوية العربية كالشجاعة والكرم والإباء والنصرة . ولما آل الأمر الى بني العباس تمثلوا في دولتهم سياسات دينية ومدنية ، لذلك تراهم يفضلون أن يمدحوا بالدين والدنيا معاً. وذكر عن الرشيد أن الشعراء اجتمعوا يوماً ببابه فسألوا الإذن ، فلم يأذن لهم ، ثم بدا له ، فقال للحاجب : اخرج إليهم فقل لهم : من اقتدر أن يمدحنا بالدين والدنيا في ألفاظ قليلة فليدخل[٣].

---

[١] الفخري : ١٣٤ .

[٢] الفخري : ١٩٦ .

[٣] ابن المعتز : طبقات الشعراء : ١٥٠ .

والجوائز التشجيعية من الخلفاء كانت سبباً أساسياً في كثرة الوافدين إليهم من الشعراء والأدباء والعلماء. وربما كان سلاح الشاعر في المفاضلة هو المبالغة في المدح وإرضاء حب الغرور في نفوس معظم الخلفاء . وكانت الجوائز نقداً وعيناً ، دراهم ودنانير ، خِلعاً ودوابّ وجواري وغلماناً ودوراً وضياعاً .

وجرى الرسم في أيام الرشيد على أن الخليفة إذا وصل أحداً من الشعراء وحرم الباقين ، وصلهم ذلك الشاعر وأعطاهم على منازلهم ومراتبهم[١].

ولم يقتصر الوافدون على الخلفاء ، بل وفدوا أيضاً على الوزراء والأعيان وذوي الفضل من القادة . وكان الاسم السائد الذي يطلق على الوافدين هو (السُؤّال) ، فاستبدل به خالد بن برمك كلمة (الزوّار) لكثرة الوافدين على بابه ، معللاً ذلك بقوله : "إني استقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء وفيهم الأشراف والأكابر"[٢].

وظهرت الدراسات المتعلقة بأوزان الشعر العربي في هذه الفترة ، وأطلق عليها اسم (العروض) ونسب الى الخليل بن أحمد أنه أول من استخرج العروض وخص به أشعار العرب[٣]، وإن كان البتّ في أمر هذه النسبة هو من قبيل التعجل اذ لابد من وجود شيء استند إليه الخليل في استخراج الأوزان أو دراسات سبقته أو عاصرته في هذا الموضوع . بيد أنه من أوائل الذين فكروا في توسيع الدراسات العروضية ، ووضع

---

[١] طبقات الشعراء : ١٥١ .

[٢] الفخري : ١٥٧ .

[٣] الفهرست : ٤٨ .

المصطلحات الدلالية لها ، وتقسيم أبوابها إذ أصبحت فيما بعد من العلوم والأنواع الأدبية المستقلة ، لها منهجها ، وطريقتها في البحث ، ومصطلحاتها ، وكتبها ، وعلماؤها .

وقيل عن سبب وضع الخليل العروض أنه مّرَّ في سِكّة القصّارين بالبصرة فسمع من وقع الكْدِيْن (مَدُقّ القصّارين) أصواتاً مختلفة ففكر في هذا العلم وقال : لأضعنّ من هذا أصلاً لم أسْبَقْ إليه ، فعمل العروض على هذه الأصوات التي في أيدي الناس[١].

والكلام الذي وجه به القول الآنف الذكر يوجه به هذا القول أيضاً. ويبقى للنص قيمة الربط بين العروض وعلم الموسيقى ، وهو دليل على أن واضع العروض كان ملماً بالموسيقى والأوزان الإيقاعية . والباحث في علم الموسيقى في التراث يجد تشابهاً كبيراً بين تجزئة الأوزان الموسيقية التي سميت ألحاناً ، وبين تجزئة الأوزان العروضية التي سميت بحوراً . فهناك نجد النقرات أساساً للوحدة الإيقاعية ، وهنا نجد الأسباب والأوتاد التي تؤلف التفعيلة وهي الوحدة الإيقاعية في البحر .

وكانت طبقة المُحَّدثين أو المُولَّدين من الشعراء قد استأثرت بميدان الأدب، ولاسيما في العصر العباسي من القرن الثاني الهجري . ويعد بشار في طليعة هؤلاء ، وعُدّ "استاذ المحدثين وسيدهم ومن لا يُقدَّم عليه ولا يُجارى في ميدانه"[٢]. وكان الغالب على شعر أبي نؤاس سهولته ، وحسن ألفاظه ، وكثرة تنوعه في الفنون والثقافات المعروفة في عصره. وذكر عنه

---

[١] طبقات الشعراء : ٩٦ .

[٢] طبقات الشعراء : ٢٤ .

أنه كان "عالماً فقيهاً، عارفاً بالأحكام والفتيا ، بصيراً بالاختلاف ، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومُحْكَمُه ومتشابه"[١].

وربما كان أبو العتاهية أسهل شعراً من أبي نواس ، وعرف عن شعره أنه يناسب كانسياب الماء حتى يقول البيت أو البيتين أو ربما القصيدة ارتجالاً ، او هكذا يظن الذي يقرأ له شعره ، ولذلك رويت عنه أشعارٌ موزونة ليست من الأعاريض المعروفة. وذكر ابن المعتز أن أبا العتاهية جلس يوماً الى قصّار "فسمع صوت الكُدَيْن ، فقال باقتداره شعراً على إيقاعه ، منه هذا البيت :

المنـــــــون مُفنيـــــــات واحـــــــداً فواحـــــــدا

كأنه نظر الى القصّار أخذ ثوباً بعد ثوب فشبهه بأخذ الموت إنساناً بعد إنسان ، وأخذ الوزن من وقع الكُدَيْن"[٢].

ونقل المسعودي[٣] من هذه الأبيات التي خرج بها أبو العتاهية على الاعاريض المعروفة بيتين ، هما :

هـــمّ القاضـــي بيـــت يُطْـــرِبْ قـــال القاضـــي لمّـــا عُوتِـــبْ

مـــا فـــي الـــدنيا إلا مـــذنبْ هـــذا عُـــذْر القاضـــي واقلـــب

وهما من المتدارك الذي زاده الأخفش ووزنه (فّعلن) أربع مرات.

---

[١] طبقات الشعراء : ٢٠١ .

[٢] طبقات الشعراء : ٢٢٩ .

[٣] مروج الذهب : ٣٩/٤ .

واتخذ بعض الشعراء من القصص والأخبار والمناقب مادة لشعرهم ، ومثّل السيد الحميري هذا الاتجاه الجديد في الشعر وضمنه أكثر ما قيل من أخبار ومناقب في آل البيت (ع) وكان حاذقاً في صنعته[١].

واتخذ شعراء آخرون الكتب المنثورة مادة لشعرهم ، وظهر بذلك ما يعرف بالشعر التعليمي ، وبلغ الغاية في الجودة على يدي أبان بن عبد الحميد وبشر بن المعتمر . وكان ابان ممن ينقل الكتب المنثورة الى الشعر المزدوج[٢]، ونقل كتاب كليلة ودمنة شعراً وأهداه الى يحيى بن خالد البرمكي أو إلى ابنه جعفر باختلاف الروايات ، وذكر أن جعفر وهب له على صنيعه هذا مائة ألف درهم . ونقل الجهشياري[٣] أن يحيى بن خالد اشتهى حفظ كتاب كليلة ودمنة فقلبه له أبان شعراً ليسهل عليه حفظه وذكر أنه أربعة عشر ألف بيت . والكتاب كما هو معروف نقله عبد الله بن المقفع من الفارسية . وأصل وضعه بالهندية . وينسب تأليفه الى حكيم أو فيلسوف يدعى بيدبا . أهداه الى دبلشيم وهو من ملوك الهند. ولسهل بن هارون – وهو من معاصري الجاحظ – كتاب على مثال كليلة ودمنة ، يدعى كتاب (ثعلة وعفرة) [٤].

---

[١] طبقات الشعراء : ٣٢ .

[٢] الفهرست : ١٣٢ .

[٣] الوزراء والكتاب : ٢١١ .

[٤] الفهرست : ١٣٤ .

أما بشر بن المعتمر (المتوفى سنة ٢١٠هـ فكان ممن ينقل الكتب المنثورة في الكلام والفقه وغير ذلك الى الشعر . ونسب اليه ابن النديم[١] قصيدة في حججه، قال انها تقع في نحو ثلاثمائة ورقة .

وكانت الأمثال والحكم مادة لبعض الشعراء . وقد اشتهر في هذا المجال صالح بن عبد القدوس ، حتى عد شعره كله أمثالاً وحكماً[٢].

وظهرت طبقة من الأدباء المصنفين تناولوا المادة الشعرية بالشرح والنقد والرواية . منهم أبو العباس المفضل بن محمد الضبي ، وله من الكتب : كتاب الاختيارات وكتاب الأمثال وكتاب معاني الشعر . وعمل للخليفة المهدي الأشعار المختارة المسماة المفضليات[٣]. ومنهم أبو محمد عبد الله بن يحيى المعروف بأبن كناسة المتوفى سنة ٢٠٧هـ . نقل شعر الكميت وفصحاء بني أسد كأبي الموصول وأبي صدقة . وله من الكتب : كتاب معاني الشعر وكتاب سرقات الكميت من القرآن[٤].

---

[١] الفهرست : ٢٠٥ .

[٢] طبقات الشعراء : ٩١ .

[٣] الفهرست : ٧٥ .

[٤] الفهرست : ٧٧ .

الفصل السابع
الخط والكتابة

إن العناية بالخط وتجويده بدأت بعد جمع القرآن الكريم في القرن الأول الهجري . وكانت في أول أمرها تنصب على سلامة القراءة ودقة رسم الحروف لأداء النص القرآني على نحو صحيح ، فابتكرت علامات النقط والشكل ، وكتبت المصاحف على قراءة واحدة لتجنب الإشكال الناتج عن القراءات القرآنية الأخرى. وكان كل ذلك يكتب على الرق واللخاف وما أشبههما . ولم تعرف القراطيس والطوامير الا بعد فترة متأخرة عن القرن الأول الهجري .

ثم تطورت العناية بالخط مع حلول القرن الثاني الهجري بأتخاذ معايير جمالية في رسم الحروف ، ومعرفة أنواع مختلفة من الخطوط ، والعناية بالدواة والأقلام ، واستخدام الطوامير والقراطيس والورق[1]، وتجليد الكتب وحفظها في الخزائن.

وكانت الطوامير في أول الأمر قليلة الاستعمال . ويروى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان "يأمر كُتّابه بجمع الخط كراهية استعمال الطوامير ، فكانت كتبه إنما هي شِبّر أو نحوه". وربما يعود السبب في ذلك الى ندرة وجود الطوامير ، أو الاقتصاد في نفقات الدواوين . ويروى مثل ذلك عن القراطيس إذْ كتب أحد العّمال الى الخليفة يطلب منه قراطيس

---

[1] القِرْطاس : ما يكتب فيه ، والطُّومار والطَّامُور : الصحيفة ، ويجمع كلاهما على طوامير. والوَرَق : الكاغد ، ويبدو أن الورق كان يطلق على جلود رقاق يكتب فيها ، وهي مستعارة من ورق الشجرة . انظر المصباح : ٦٥٦ . والرَّقّ: الجلد يُكتب فيه . وأصل السَجَلّ كتاب القاضي . والجمع : سِجلاّت . وسَجَلَ القاضي : قضى وحكم وأثبت حكمه في السجل . المصباح : ٢٦٧ . والصكّ : الكتاب الذي يُكتب في المعاملات والآقارير ، وجمعه : صكوك . المصباح : ٣٤٥ .

ويشكو قلتها عنده ، فأجابه : أنْ دَقِّقْ قَلمَك وأقْلِلْ كلامك ، تكتف بما عندك من القراطيس[١].

ويظهر من بعض النصوص أن عمر بن عبد العزيز كان على معرفة بالخط وتجويده ، ويروى أن ابناً له قد مات فكتب له أحد عماله يعزيه عن ابنه ، فقال لكاتبه : أجبه عني ، قال : فأخذ الكاتب يَبْري القلم، قال: فقال للكاتب : أدِقّ القلم ، فانه أبقى للقرطاس ، وأوجز للحروف[٢].

ومن أعلام الكتاب في آواخر الدولة الأموية عبد الحميد الكاتب . وحكي عنه أنه مر بإبراهيم بن جبلة وهو يكتب خطاً رديئاً ؛ فقال له : أتُحبُّ أن يجود خطك ؟ قال : نعم؛ أطِلْ جِلْفة[٣] قلمك وأسْمِنْها، وحرّفْ قّطَّتك وأيمنها . قال إبراهيم : ففعلت ذلك فجاد خطّي[٤].

وتروى بعض النصائح في تجويد الخط عن المنصور ، وإن كان يذهب فيها مذهب الاقتصاد في استعمال القراطيس . ومن كلامه الى يوسف بن صبيح الكاتب حين أراد استخدامه في الديوان : اكتبْ وقاربْ بين الحروف وفّرَّجْ بين السطور ، واجمْع خّطّك ، ولا تُسْرف في القرطاس[٥].

وكان النَّسْخ من المهن الرائجة في القرن الثاني الهجري ، وعرفت أسواق الورّاقين بما فيها من كتب ونُسّاخ يأخذون الأجرة على نسخ الكتاب

---

[١] الوزراء والكتاب : ٥٣ .

[٢] تأريخ الرسل والملوك : ٦/٥٧١ .

[٣] الجِلْفة : ما بين مَبْرى القلم وسنه . وسنّ القلم : رأسه انظر : الرافد ٤٩ .

[٤] الوزراء والكتاب : ٨٢ ، وأنظر : نشوار المحاضرة ٥/٢٤٠ .

[٥] الوزراء والكتاب : ١٣٢ .

جملة أو على حساب الورقة الواحدة ، ويختلف الناسخ عن الآخر تبعا لجودة خطه وضبطه للمتن ، ووصف بعض الكتاب النسخ فقال "ينبغي أن يصحبها الفكر الى استقرارها، ثم تستبرأ بإعادة النظر فيها بعد اختيارها ، ويوسع بين سطورها ، ثم تحرر على ثقة بصحتها ، وتتأمل بعد التحرير حرفاً حرفاً الى آخرها..." [1].

أما سجلات الدولة بما فيها الدواوين والأقطاعات والكتب السلطانية وغيرها فكانت تتخذ من الجلد ، ثم استبدل بمكانه الكاغد ، ونسب ذلك الى الفضل بن يحيى البرمكي . وقد علل ابن خلدون التحول من الجلد الى الكاغد بقلة التأليف في صدر الدولة وتشريفاً للمكتوبات . ولما كثر التأليف والتدوين في السجلات وغيرها من الكتب الرسمية والكتب المؤلفة في موضوعات العلوم والمعارف والفنون انتقلوا الى استعمال الكاغد . لسعته في تدوين ما ينبغي تدوينه ولضيق الرق المتخذ من الجلد عن ذلك . قال "... وكانت السجلات أولاً لانتساخ العلوم ، وكتب الرسائل السلطانية ، والإقطاعات ، والصكوك ، في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد ، لكثرة الرفه وقلة التأليف صدر الملة ..... وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك . فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفاً للمكتوبات وميلاً بها الى الصحة والإتقان . ثم طمى بحر التأليف والتدوين ، وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد

---

[1] الحصري : زهر الآداب ١/١٥٥ ، تحقيق زكي مبارك . القاهرة ١٩٧٢ .

وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه ، واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية..." [١].

وذكر محمد بن عمر المدائني في كتاب القلم والدواة أنه كان يكتب للخلفاء في قرطاس من ثلثي طُومار . ويظهر أنه يعني العباسيين . ثم كتب لهم في طومار كامل من القطع البغدادي ، وقد أشار القلقشندي[٢] الذي نقل الخبر المذكور الى ذلك قائلاً "... والطومار هو الفرخة الورق الكاملة والمراد الورق البغدادي ، فان الخلافة ببغداد كانت ..... فكانت البيعات تكتب في قطع الثلثين المذكور ، والذي يظهر أن ذلك كان في أول أمرهم ، وأنه بعد ذلك كان يكتب لهم في قطع البغدادي الكامل ..." . ولو اتخذنا مقدار ما كان يمثله الدرهم من قوة شرائية في النظام الاقتصادي للدولة في القرن الثاني الهجري وقارنا ذلك بالخبر الوارد عن سعر القراطيس في عهد المنصور مثلاً لوجدنا أن ثمنها مرتفع ، وقد ذكر الجهشياري[٣] أن الطومار الواحد من القراطيس كان يباع في عهد المنصور بدرهم ،والطومار هو فرخة الورقة الكاملة كما تقدم، ولذلك كان الكتاب الواحد ربما كلّف مئات الدراهم، وآثر بعض العلماء والنقلة تعظيم حجم كتبهم برسم الحروف الكبيرة والغليظة في الاوراق والتفرقة بين الأسطر لغرض الحصول على دراهم أكثر . وربما شجع الورّاقون على هذا النحو من الكتابة لأنهم كانوا في الغالب يتقاضون أجراً على الورقة الواحدة .

---

[١] المقدمة : ٤٦٢ .

[٢] مآثر الإنافة : ٣١٧/٢ .

[٣] الوزراء والكتاب : ١٣٨ .

وينقل عن حنين بن إسحق أنه كان يذهب في كتبه هذا المذهب ، وفيما يلي وصف ذكره ابن أبي أصيبعة[١] لبعض ما وجده من كتب حنين، قال "... وجدت من هذه الكتب كتباً كثيرة . وكثيراً منها اقتنيته . وهي مكتوبة مولد الكوفي ، بخط الأزرق كاتب حنين . وهي حروف كبار بخط غليظ في أسطر متفرقة . وورقها كل ورقة منها بغلظ ما يكون من هذه الأوراق المصنوعة يومئذ ثلاث ورقات أو أربع ، وذلك في تقطيع مثل ثلث البغدادي وكان قصد حنين بذلك تعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه ، لأجل ما يقابل به من الدراهم ، وكان ذلك الورق يستعمله بالقصد ، ولا جرم لغلظه بقي هذه السنين المتطاولة من الزمان" . وعرفت في هذه الفترة منها تجليد الكتب ، وهي تضاف الى أعمال الوراقين . وكان ابن أبي الحريش يجلد الكتب في خزانة الحكمة للمأمون[٢]. وبتطور الخط وتجويده عني بأدواته كالمداد والقلم والقرطاس. وسمي الِحْبر مِداداً ، وكان يتخذ من العَسَل والصَّبِر "أما العسل فانه يحفظه على مرور الأيام ولا يكاد يتغير عن حالته . وأما الصبر فانه يمنع الذباب من النزول عليه"[٣]. وعرفت أنواع من الاقلام واتخذت من أجود العيدان وأرفعها ثمناً كالآبنوس والسَّاسم والصَّنْدل[٤]. وينبغي للقلم أن يكون له قدٌّ معين لا يتجاوزه وكيفية في مسكه لكي يجود خطه ، ونقل عن ابن مقلة قوله : أحسن قدود القلم أن لا

---

[١] عيون الأنباء : ١٦٠/٢ .

[٢] الفهرست : ١٢ .

[٣] مرتضى الزبيدي : حكم الإشراق (ضمن مجموع نوادر المخطوطات نشر عبد السلام هارون ٧٣/٢) .

[٤] حكمة الإشراق : ٧٣/٢ .

يتجاوز به الشَّبْر بأكثر من جِلْفته . أما عن كيفية مسكه فبالإبهام والوسطى "وتكون السبّابة تمنعه من الميل والاضطراب وتكون مبسوطة غير مقبوضة ، لأن ببسط الأصابع يتمكن الكاتب من إدارة القلم . ولا يتكئ على القلم الاتكاء الشديد المضعف له ، ولا يمسك الإمساك الضعيف فيضعف اقتداره في الخط لكن يجعل الكاتب اعتماده في ذلك معتدلا"[١].

وللقلم حال من الصلابة والرخاوة تؤثر في خّطّه ويكون ذلك تبعاً للين الصحيفة أو صلابتها "لأنها إذا كانت لينة احتاجت أن يكون في الأنبوب لين ، وفي لَحْمه فَضْلُ ، وفي قِشْره صلابة. وإن كانت لينة احتاجت أن يكون في الأنبوب يبس وصلابة ... وعلة ذلك أن حاجته من المِداد في الصحيفة الرخوة أكثر من حاجته اليه في الصحيفة الصلبة ، فرطوبته ولحمه يحفظان عليه غزارة الاستمداد ، ويكون في الصحيفة الصلبة ما وصل اليها من القلم الصلب الخالي من المداد كافياً"[٢].

وتطور الخط العربي لم يحدث مفاجئة ، وهذا هو شأن الخطوط في جميع اللغات ، فهي تمر بمراحل حتى تستقر على مستوىً من التجويد يتيح لها التنويع الجمالي في رسومها . وكان الخط الذي عرف بالكوفي هو الغالب في الاستعمال في القرن الأول الهجري ، وبعد قيام الدولة العباسية ظهرت رسوم جديدة ، فبقيت المصاحف تكتب على مثال الخط القديم ، أما الكتب والرسائل وغيرها فاتخذت من الخطوط الحديثة رسوماً لها ، فأبتكر خط يسمى العراقي وهو المُحقّق الذي يسمى الورّاقي[٣]. وأطلق على

---

[١] حكمة الإشراق : ٧٣/٢ .

[٢] حكمة الإشراق : ٧٢/٢ .

[٣] الفهرست : ١١ .

أصناف الخطوط المختلفة اسم (القلم) ويجمع على (أقلام)، لعلاقته بوضع القلم أو سمكه أو طريقة قَطّه ودقة طَرَفه أو غلظه حال الرسم به على الصحف والقراطيس . وللأغراض الكتابية التي تستعمل فيها الأقلام علاقة بنوع الخط ، ولأنواع الورق والقراطيس علاقة بنوع القلم المتخذ للكتابة . وفيما يأتي أشهر أسماء (الأقلام) أي أنواع الخطوط التي كانت معروفة الى حدود القرن الثالث الهجري كما ذكرها ابن النديم[1]:

١. قلم الجليل ، وهو أبو الأقلام كما وصفه ابن النديم ، ومنه اشتقت الأقلام الآتية: قلم الطومُار الكبير ، قلم النصف الثقيل ، قلم الثلث الكبير الثقيل . وهي الأصول للأقلام جميعاً ومنها اشتقت .
٢. قلم السجلاّت .
٣. قلم الديباج .
٤. قلم السجلات الأوسط .
٥. قلم السميعي .
٦. قلم الأشرية .
٧. قلم الطومُار الكبير .
٨. قلم الخِرْفَاج .
٩. قلم الثلثين الصغير الثقيل .
١٠. قلم الزنبور .
١١. قلم المفتح .
١٢. قلم الجزم .

---

[1] الفهرست : ١٠ ، ١١ .

١٣. قلم المؤامرات .
١٤. قلم العهود .
١٥. قلم أمثال النصف .
١٦. قلم القصص .
١٧. قلم الأجوبة .
١٨. قلم الخِرْفَاج الثقيل وهو خفيف الطومار الكبير .
١٩. قلم الخِرْفَاج الخفيف .
٢٠. قلم المدور الكبير أو الرياسي .
٢١. قلم المدور الصغير .
٢٢. قلم خفيف الثلث الكبير .
٢٣. خط الرِّقاع .
٢٤. قلم مفتح النصف .
٢٥. قلم النرجس .

وينسب وضع القلم الرئاسي إلى ذي الرئاستين الفضل بن سهل ، ووصف بأنه من أحسن الأقلام ومنه تتفرع عدة أقلام؛ فمن ذلك قلم الرئاسي الكبير، وقلم النصف من الرئاسي ، وقلم الثلث ، وقلم صغير النصف ، وقلم خفيف الثلث ، وقلم المحقق ، وقلم المنثور ، وقلم الوشي، وقلم الرقاع وقلم المكاتبات ، وقلم غبار الحلبة ، وقلم النرجس ، وقلم البياض .

وكان قلم الجليل يكتب به عن الخلفاء الى ملوك الأرض في الطوامير الصحاح ، وقلم الثلثين الصغير الثقيل المستخرج من الطومار يكتب به عن الخلفاء الى العمال والأُمراء في الآفاق . أما قلم الأشرية

فمخرجه من خط السجلات الأوسط ، ويكتب به عتق العبيد والأشرية والأرضون والدور وغير ذلك . وقلم المدور الصغير يخرج من المدور الكبير الذي سمي الرئاسي ، وهو قلم جامع يكتب به في الدفاتر والحديث والأشعار[1].

وهذه التسميات التي أطلقت على الأقلام ويفهم منها أنها تبين نوع الخط وشكله المستعمل في الكتابة يمكن إرجاعها إلى الأمور الآتية :

١. ما يكتب به عن الخلفاء والوزراء والقواد الى من دونهم، كقلم الجليل، سمي بذلك أخذاً من معنى الجلالة التي هي العظمة والظاهر أنه أغلظ الأقلام جميعاً .
٢. ما يكتب به في السجلات والعقود والعهود والأسناد وما أشبهها . كقلم السجلات وقلم الأشرية ، وقلم المؤامرات ، وقلم العهود .
٣. ما يكتب به في الردود المستعجلة والموجزة ومقدمات الكتب ، كقلم الديباج ، وقلم القصص ، وقلم الأجوبة .
٤. التسمية تبعاً للورق أو القراطاس الذي يكتب فيه . كقلم الطومار بأنواعه .
٥. التسمية تبعاً لشكل الخط وشبهه بالمسمى . كقلم الخرفاج ، أخذاً من معنى الخَرْفَجة وهي السعة في العيش . وقلم الزنبور ، وقلم النرجس.
٦. التسمية تبعاً للشخص الذي ابتكر القلم . كالقلم الذي نسب الى ذي الرئاستين.

---

[1] الفهرست : ١٠ ، ١١ .

٧. وكانت الخطوط تختلف باختلاف سِنّ القلم أو شعيرته وهي رأسه. والمعروف أن عرض السن كان يقاس اصطلاحاً بعدد الشعرات من شعر البِرْذَوْن. وفيما يأتي وصف لبعض هذه الأقلام[١]:

الثُلث الثقيل : ما كان عرض سنيه ثماني شعرات من شعر البرذون .

الثلث الخفيف : ما كان عرض سنيه أقل من ثماني شعرات .

الثلثان : ما كان عرض سنيه ست عشرة شعرة .

الجّزْم : القلم المستوي السنّينِ .

الجليل : ما كان عرض سِنّيه أربعاً وعشرين شعرة ، وهو أغلظ الأقلام.

الرَقّاع : القلم الدقيق تكتب به الرسائل .

الغُبَار : أدق الأقلام على الإطلاق ، كانوا يكتبون به الأسرار والرسائل التي تنفذ على أجنحة الطير .

اللؤلؤي : القلم الذي هو أدق من الثلث الخفيف .

المبسوط : القلم الذي سِنّاه مستويتان كالَجزْم .

المُحَّرف : القلم الذي إحدى سِنّيه أطول من الثانية .

المُشَّعث : القلم الذي انتفش رأسه وساء خطه .

النصُّفْ : القلم الذي عرض سِنّيه اثنتا عشرة شعرة .

وعرف في القرن الثاني الهجري وراقون مجيدون في نسخ الكتب. منهم خالد بن أبي الهياج وكان يكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد

---

[١] انظر : أمين آل ناصر الدين ، الرافد ٤٩ .

بن عبد الملك. وطلب إليه عمر بن العزيز أن يكتب له مصحفاً يتنوق فيه، ولما أتمه له أقبل عمر يقلبه ويستحسنه ولكنه استكثر ثمنه فرده عليه[١].

ومنهم مالك بن دينار ويكنى أبا يحيى، وكان يكتب المصاحف بأجرة ، ومات سنة ١٣٠هـ[٢]. ومنهم أبو يحيى مالك بن دينار البصري المتوفى سنة ١٢٧هـ ، وكان يكتب المصاحف بالأجرة[٣]. ومن كُتّاب المصاحف خُشْنَام البصري ، ومهدي الكوفي ، وكانا في أيام الرشيد ولم يْرَ مثلهما ، ووصفت ألفات خشنام التي يخطها بأنها كانت ذراعاً شّقاً بالقلم[٤].

وظهر في أيام المأمون رجل يعرف بالأحول المحرّر من صنائع البرامكة ، عارف بمعاني الخط وأشكاله ، فتكلم على رسومه وقوانينه ، وجعله أنواعاً . وكان يحرر الكتب النافذة من السلطان الى ملوك الأطراف في الطوامير[٥].

ومن القضايا المتصلة بالخط وتجويده ما يعرف بالطِّراز ، وهو رسم الكلمات على الأثواب تأنقاً في الملبس وإظهاراً للهيبة. وذكر ابن خلدون أن "من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم ، تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب إلحاماً وسدىً بخيط الذهب ، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ... فتصير

---

[١] الفهرست : ٩ .

[٢] الفهرست : ٩ .

[٣] شذرات الذهب : ١٧٣/١ .

[٤] الفهرست : ٩ ، ١٠ .

[٥] الفهرست : ١١ .

الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصداً للتنويه بلابسها من السلطان فمن دونه ، أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه اذا قصد تشريفه بذلك ، أو ولايته لوظيفته من وظائف دولته"[١].

والطراز قديم عرف في الدول التي تقدمت دولة الخلافة ، وكان يجعل بصورة الملوك وأشكالهم أو الأشكال وصور معينة لذلك. واستعاض الخلفاء من ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفأل الحسن. وعرفت دور خاصة بالطراز ، فيها تنسج الثياب ويكتب عليها . ويشرف على هذه الدور موظف كبير يسمى (صاحب الطُرّاز) ، وواجبه النظر "في أمور الصبّاغ والآلة والحاكة فيها ، وإجراء أرزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة أعمالهم"[٢].

وكانت الدواوين مركزاً مهماً من مراكز تطوير الكتابة ، ولاسيما الرسمية منها التي عرفت بالكتابة الديوانية . وقد بدأ تعريب الدواوين في خلافة عبد الملك بن مروان ، وكانت قبل ذلك تكتب بالفارسية والرومية والقبطية ، تبعاً للنفوذ السياسي واللغوي الذي كان سائداً قبل الإسلام . وترك تعريب الدواوين مجموعة من المصطلحات الأساسية في التنظيمات المالية للدولة ، ونشأت تراتيب إدارية مخصوصة لإدارتها والإشراف عليها ، وتقسيم الأعمال والاختصاصات والسجلات . وكان يقوم بذلك كله موظفون عرفوا بالكتّاب أو بكتّاب الدواوين يشرف عليهم كاتب كبير يختاره الخليفة أو الوزير. وعينت لهم أرزاق يتقاضونها في الشهر الواحد . وكانت

---

[١] المقدمة : ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

[٢] المقدمة : ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

مرتبات العمال والكتاب في الدولة الأموية وفي الدولة العباسية إلى خلافة أبي جعفر المنصور ثلاثمائة درهم للرؤساء ، وفي خلافة المأمون وسع عليهم الفضل بن سهل . وروي عن يوسف بن صبيح كاتب عبد الله بن علي عم المنصور أن كتاب الدواوين في خلافة المنصور كان يجرى لهم في كل شهر عشرة دراهم[١]. ويستفاد من مقارنة الخبرين المذكورين آنفاً أن الثلاثمائة درهم الواردة في الخبر الأول كانت تصرف في السنة الواحدة .

وجعل المهدي يوم الخميس عطلة للكتاّب ، وبقي ذلك نافذاً الى خلافة المعتصم اذ ألغى العطلة[٢]. وظهرت دواوين مستحدثة في القرن الثاني الهجري ، ولاسيما في صدر الخلافة العباسية . ونسب الى المهدي أنه أول من أحدث دواوين الأزمة وقلدها عمر بن بزيغ ، وفي سنة ١٦٨هـ أحدث ديوانا يشرف على دواوين الأزّمة ، وأطلق عليه (زِمام الأزمّة) ، وقلد ذلك علي بن يقطين[٣].

واستحداث مثل هذه الدواوين هي من قبيل المحاولات التي جرت من بعض الخلفاء للتخلص من عبء السلطات التنفيذية وبخاصة ما تعلق منها بالشؤون الإدارية ، وحصرها في شخص واحد أو عدة أشخاص يكونون على صلة دائمة بالخليفة يصدرون عنه في الأمور العامة ويجتهدون في الموارد الجزئية التي تكون غالباً ذات طابع إجرائي . وإذا شعر الخليفة بخلاف ذلك سلب صلاحياته الممنوحة لبعض الأفراد بأن يوكلها الى أفراد

---

[١] المقدمة : ٢٩٣ .

[٢] الوزراء والكتاب : ١٦٦ .

[٣] الوزراء والكتاب : ١٤٦ .

آخرين ، وهكذا يستمر هو مصدراً للسلطتين التشريعية والتنفيذية دون أن يباشر بنفسه أعمالهما .

ونشأت بعض التقاليد والرسوم في كتابة الرسائل الديوانية . منها العبارة التي زادها يحيى بن خالد في أول الكتب ، وهي : (واسأله أن يصلي على محمدٍ عبد ورسوله) ، ووضع في ذلك كتاباً ذكر فيه فضل الأنبياء[١]. وفي خلافة الرشيد فوض الكاتب أن يكاتب العمال باسمه وتوقيعه ، وجرى ذلك في ديوان الخراج خاصة ، فقد كانت الكتب التي تنفذ من هذا الديوان تؤرخ باسم الوزير وكان حينذاك يحيى بن خالد وزيراً للرشيد وحدث أن أبا العباس الطوسي – وهو أحد المشرفين على ختم الرسائل – كان يتعقد في ختم الكتب النافذة الى دار الخلافة ، فشكا يحيى الى الرشيد تأخر الكتب ، فأمره أن يكاتب العمال عن نفسه ، وأمر كاتبه أن يكتب عنه في المهم ، وأن يؤرخ الكتب باسم الكاتب[٢].

ومن الأمور المتعلقة بالكتابة ما سمي اصطلاحاً (التوقيعات) ، وجعلها ابن خلدون من خطط الكتابة "وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حُكْمه وفَصْله ويوقّع على القِصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقّاةً من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه ، فإما أن تصدر كذلك ، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصّة"[٣].

---

[١] الوزراء والكتاب : ١٧٧ .

[٢] الوزراء والكتاب : ١٧٨ .

[٣] المقدمة : ٢٧١ .

والتوقيعات ضرب من ضروب البلاغة عمادها الإيجاز في القول والتوسع في الدلالة واشتهر بعض الوزراء بتوقيعاتهم المختارة ، ويروى عن جعفر بن يحيى أنه كان "يوقع في القِصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقِصّة"[١] إلى صاحبها فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل إنها كانت تباع كل قِصّة منها بدينار".

وكان الخليفة أو الوزير يوقع في الكتاب أو في القصة المرفوعة اليه ويملي عباراته على الكاتب ويترك له شرح المقصود وتوضيحه . قال الجهشياري "... ولم يكن للكتّاب في ذلك الأمر شيء أكثر من أن يكتبوا تلك الجملة من التوقيع ألفاظاً تشرحها ، ويقرب من العامة فهمها ، ولا تخرجها عن معنى قصد الرئيس"[٢].

ومن القضايا المتعلقة بالكتابة أيضاً ما عرف بـ(الخاتم) ، وهو من جملة شعار الخلافة . وأصله أن تنقش بعض العبارات على خاتم يتخذه الخليفة ويختم به الكتب النافذة منه إلى الأمراء والقوّاد والعمّال في شؤون الدولة المتخلفة . واستعمل للختم به طين مخصوص عرف بطين الختم ، يطبع عليه الخاتم فيظهر نقشه على الطين واضحاً . واتخاذ الخاتم قديم ، فقد أرخ بعهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وثبت أنه اتخذ خاتماً من ورق وجعل نقشه (محمد رسول الله)[٣]، واتخذ الخلفاء من بعده خواتيم لهم ،

---

[١] القصة وجمعها القصص : التي تكتب ، وهي قطعة صغيرة من ورق أو قرطاس أورق تكتب عليها الحاجة أو جوابها .

[٢] الوزراء والكتاب : ٢١٠ .

[٣] مآثر الإنافة : ٢٣٣/٢.

كـل خليفـة لـه خـاتم مخصـوص بـه . ودرج علـى ذلـك الأمويـون والعباسيون[1].

وظهرت جماعة من الكتّاب في القرن الثاني الهجري كانت تعنى بإدخال العنصر الحضاري الى الكتابة يضاف اليه العنصر البلاغي في الأُسلوب . فاستفادت من الثقافات المتاحة لها في عصرها سواء أكانت ثقافات تقليدية كعلوم اللغة والمعرفة الأدبية والتاريخية أم ثقافات جديدة كالمنطق وعلم الكلام والمعارف الحكمية والفلسفية . وأدخلت ذلك كله في مضامين الكتب والرسائل . وكان سالم – ويكنى أبا العلاء– كاتب هشام بن عبد الملك وخَتَن عبد الحميد أحد الفصحاء والبلغاء "وقد نقل من رسائل أرسطاليس الى الإسكندر أو نقل له وأصلح هو . وله رسائل في مجموع نحو مائة ورقة"[2].

ومن مشاهير الكتاب في آواخر العصر الأموي عبد الحميد بن يحيى ، كاتب مروان بن محمد . وكان في أول أمره معلماً للصبيان يتنقل في البلدان ، وكتب لبعض الخلفاء والعمال، ثم لزم مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية وبقي معه الى أن قتل مع مروان في هروبه بعد معركة الزاب.

وعني عبد الحميد في أسلوبه بالتوازن وكثرة استخدام المترادفات، حتى أصبح التوازن سمة بارزة في نثره . قال ابن النديم "... عنه أخذ

---

[1] انظر : التنبيه والإشراف من ص٢٧٦ الى ص٣٠٥ . وتاريخ الخلفاء الصفحات: ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٨١ ، ٣١٥ . ومآثر الإنافة ١/ من ص١٤٢ الى ص٢١٠ . وأخبار الدول من ص١٣٩ الى ص١٥٣ .

[2] الفهرست : ١٣١ .

المترسلون ، ولطريقته لزموا . وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل". وترك عبد الحميد مجموعة من الرسائل ذكر ابن النديم انها تقع في نحو ألف ورقة[١] لم يصلنا منها سوى القليل ، أهمها رسالته الموجهة الى الكتّاب وهي رسالة بالغة الأهمية لأنها أشبه ما تكون بالدستور لأصحاب المهنة الواحدة وفيها تعليمات وتوجيهات للكتّاب في صنعتهم . ويمكن تلخيص أهم موارد الرسالة في الأمور الآتية[٢]:

١. أهمية الكاتب في إدارة الدولة وسياستها. قال عبد الحميد مخاطباً الكتّاب : "..... بكم ينتظم المُلك ، وتستقيم للملوك أمورهم . وبتدبيركم وسياستكم يُصلح الله سلطانهم ، ويجتمع فيهم ، وتعمر بلادهم . يحتاج اليكم المَلِك في عظيم مُلّكه ، والوالي في القَدر السنيّ والدنيّ من ولايته. لا يستغني عنكم منهم أحد".

٢. ما ينبغي للكاتب أن يتصف به : "... فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره، إلى أن يكون حليماً في موضع الحِلْم ، فقيهاً في موضع الحُكْم، مقداماً في موضع الإقدام ، ومُحْجماً في موضع الإحجام ، ليّناً في موضع اللين، شديداً في مَوْضع الشدة ،مُؤْثراً للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوماً للأسرار، وفيّاً عند الشدائد، عالماً بما يأتي ويذر ، ويضع الأمور في مواضعها..." .

---

[١] الفهرست : ١٣١ .

[٢] انظر نص الرسالة الكامل في الوزراء والكتاب : ص: ٧٤ ، ٧٥ .

٣. العلوم والمعارف التي ينبغي أن يستحصلها الكاتب : "... فنافسوا – معشرَ الكتّاب – في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله – عز وجل – ، والفرائض ، ثم العربية ، فانها ثقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخط ، فانه حِلْية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك مُعينٌ لكم على ما تَسْمُون اليه بهمِمكم ، ولا يَضْعفنَّ نظركم في الحساب، فإنه قِوام كّتاب الَخَراج منكم...".

ومن كتّاب الدواوين خالد بن ربيعة الإفريقي . وكان بليغاً مترسلاً أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، وله رسائل مجموعة ذكر ابن النديم أنها تقع في نحو مائتي ورقة[١]. وفي خلافة المنصور اشتهر كاتبان من بين سائر الكتاب أحدهما عبد الله بن المقفع والآخر عمارة بن حمزة . أما ابن المقفع فقد جمع بين الرسائل الديوانية والرسائل الأدبية .

وتميز أسلوبه بإدخال العنصر الثقافي والاستفادة من العلوم النقلية والعقلية في رسائله وكتبه . وكانت عباراته واضحة معبرة تعبيراً دقيقاً وإن اتسمت في بعض الموارد بالطول واستخدام الحال استخداما مسرفاً ، وربما كان ذلك بسبب عمله في الترجمة . وإليه يرجع الفضل في ترجمة بعض الكتب الى العربية ككتاب كليلة ودمنة ، وترك ابن المقفع تراثاً أدبياً ، لم يصل الينا منه الا أقله . من جملة ذلك : كليلة ودمنة وأصل الكتاب وضع

---

[١] الفهرست : ١٣١ .

بالسنسكريتية وهو من تأليف حكيم هندي يدعى بيدبا، ألفه للملك دبشليم. والكتاب ذو طابع رمزي يتناول قصصاً وحكايات ذات مغزىً حكمي على ألسنة الحيوانات. ترجم الى البهلوية ، ومنها ترجمه ابن المقفع الى العربية. ومن كتبه ورسائله : الأدب الكبير والأدب الصغير ، وهما كتابان في الحكمة والأخلاق تناول فيهما آداب السلطان وصحبته ، والصداقة والصديق ، وعمل الخير ، والرذائل وعواقبها وكيفية مسايرة الناس ، وفضل الأقدمين ، وما أشبه ذلك من موضوعات أخلاقية . ومنها : رسالة الصحابة ، والدرة اليتيمة .

وأما عمارة بن حمزة فقد غلبت عليه الكتابة الديوانية ، وله مع ذلك مجموعة من الرسائل أشهرها رسالة الخميس التي كانت تقرأ لبني العباس[1].

وتعددت أنواع الكتابة في خلافة الرشيد بتعدد فنونها . ويستفاد من نص يحكي محاورة بين وزير متنكر وحائك مدى اتساع أقسام الكتابة في هذا العصر. ونحن ننقل هذا النص ليس باعتبار صحة الحكاية – فقد تكون من وضع القُصّاص الذين كثروا في ذلك الزمان – وإنما لبيان تعدد فنون الكتابة وشروط الكاتب البليغ.

جرت المحاورة بين عمرو بن مسعدة وزير الرشيد وحائك عرض له في طريقه . سأل الحائك عن صنعته فأخبره ، وسأل الحائك الوزير عن صنعته – وكان لا يعلم أنه الوزير – فأجابه عمرو بأنه كاتب ، فقال

---

[1] الفهرست : ١٣١ .

الحائك : "إن الكتابة على خمسة أصناف : كاتب رسائل ، يحتاج أن يعرف الفَصْل من الوَصْل ، والصدور ، ورقيق الكلام ، والتهاني والتعازي ، والترهيب والترغيب ، والمقصور والممدود وجملاً من العربية. وكاتب جُند يحتاج إلى أن يعرف حساب التقدير، وشيات الدوابّ، وحلي الناس ونعوتهم. وكاتب قاضٍ يحتاج إلى أن يكون عاملاً بالشروط والأحكام ، عارفاً بالناسخ والمنسوخ من القرآن ، والحلال من الحرام ، والفروع والمواريث . وكاتب شرطة يحتاج أن يكون عالماً بالجروح والقصاص والديات، فقيهاً في أحكام الدماء، عارفاً بدعوى التعدي. وكاتب خراج ، يحتاج أن يعرف الزرع والمساحة وضروب الحساب ..." [١].

ومن الكتاب المترسلين في القرن الثاني الهجري سهل بن هارون صاحب خزانة الحكمة للمأمون[٢]، وسعيد بن هريم شريك سهل في بيت الحكمة ، وسلم صاحب بيت الحكمة مع سهل ، وعلي بن داود كاتب أُمّ جعفر زبيدة ، وكان أحد البلغاء "ويسلك في تصنيفاته طريقة سهل بن هارون". وعلي بن عبيدة الريحاني "أحد البلغاء والفصحاء. له اختصاص بالمأمون. ويسلك في تصنيفاته وتأليفاته طريقة الحكمة"[٣].

---

[١] الإمامة والسياسية : ١٨٩/٢ ، ١٩٠ .

[٢] الفهرست : ١٣٣ .

[٣] الفهرست : ١٣٤ .

وذكر له ابن النديم[1] من الكتب : كتاب المصون ، وكتاب الهاشمي ، وكتاب المعاني ، وكتاب الخصال، وكتاب الجد ، وكتاب الصبر، وكتاب الأخوان ، وكتاب العقل والجمال، وكتاب شرح الهوى ووصف الإخاء، وكتاب السمع والبصر ، وكتاب صفة العلماء ، وكتاب الأجواد.

[1] الفهرست : ١٣٣ .

الفصل الثامن
الأخبار والإخباريون

استعملت كلمة (أخبار)، والنسبة إليها (أخباري) في القرن الثاني الهجري بمعنى التأريخ والمؤرخ . وقد يفهم من كلمة (أخباري) معنى الذي يعنى بالقصص والحكايات يضاف اليها عنايته بالتأريخ وأيام العرب وغيرها من الأمم الخالية[1]. فالأخبار والأخباريون كانوا مقدمة لعلم التاريخ وظهور المؤرخين الموسوعيين في تاريخ الحضارة الإسلامية .

وكان معظم الأخباريين في هذه الفترة يشتغلون بالأمور الجزئية مما يتعلق بتواريخ العرب قبل الإسلام وبعده ، ولاسيما الأحداث والغزوات والحروب التي جرت في القرن الأول الهجري . ويعد أبو مخنف لوط بن يحيى من أوائل الذين كتبوا في هذه الموضوعات ، فقد كتب في فتوح الشام، وفتوح العراق، والجَمَل ، وصِفّين، وأهل النهروان والخوارج . وله كتاب مقتل علي (عليه السلام) ، ومقتل حجر بن عدي (رضي الله عنه) ، ومقتل الحسين (عليه السلام) ، وموت معاوية وولاية يزيد، ووقعة الحّرة وحصار ابن الزبير، وكتاب المختار بن أبي عبيد ، وسليمان بن صرد، وعين الوردة، ومرج راهط، وبيعة مروان، ومقتل الضحّاك بن قيس ، وكتاب مَصْعَب وولايته العراق ، وكتاب مقتل عبد الله بن الزبير[2]... الخ.

ومن طبقة أبي مخنف أبو الفضل نصر بن مزاحم . وله من الكتب: كتاب الغارات، وكتاب صفين وهو من الكتب المعروفة التي سلمت من الضياع وطبعت وحققت، وكتاب الجمل، وكتاب مقتل حجر بن عدي (رضي الله عنه) ، وكتاب مقتل الحسين بن علي (عليه السلام).

---

[1] قال ابن الاثير "الأخباري – بفتح الألف وسكون الخاء المعجمة وفتح الباء الموحدة وفي آخرها راء – هذه النسبة الى الأخبار ، ويقال لمن يحكي الحكايات والقصص والنوادر الأخباري . اللباب في تهذيب الأنساب ٣٤/١ .

[2] الفهرست : ١٠٥ .

ومن طبقته أيضاً إسحاق بن بشر . ومن كتبه : كتاب المبتدأ ، وكتاب الردة، وكتاب الجمل ، وكتاب الفتوح ، وكتاب حفر زمزم ، وكتاب الألوية ، وكتاب صفين[١].

ومن أوائل الأخباريين الذين أدركوا القرن الثاني الهجري أبو عبد الله وهب بن منبه الصنعاني المتوفى سنة ١١٤هـ "وكان شديد الاعتناء بكتب الأولين وأخبار الأمم وقصصهم ... وله مصنف في ذكر ملوك حمير ، صغير "[٢].

وجمع أبو البختري ، وهب بن وهب القضاء والفقه الى الأخبار والنسب . وولي القضاء للرشيد بعسكر المهدي ، ثم عزله وولاه المدينة بعد بكار بن عبد الله وجعل اليه حربها مع القضاء ، ثم عزل فقدم بغداد وتوفي بها .

ومن كتبه : كتاب طسم وجديس ، وكتاب صفة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكتاب فضائل الأنصار، وكتاب الفضائل الكبير ويحتوي على جميع الفضائل ، وكتاب نسب ولد إسماعيل بن ابراهيم (عليه السلام) ويحتوي على قطعة من الأحاديث والقصص[٣].

ومن الأخباريين الذين عنوا بأنساب العرب وأيامها أبو النضر محمد بن السائب الكلبي الكوفي المتوفى سنة ١٤٦هـ . وكان "صاحب التفسير

---

[١] الفهرست : ١٠٦ .
[٢] شذرات الذهب : ١٥٠/١ .
[٣] الفهرست : ١١٣ .

والأخبار والأنساب"[١] . وعوانة بن الحكم المتوفى سنة ١٤٧هـ . وله من الكتب: كتاب التاريخ[٢].

ويعد محمد بن إسحاق بن يسار أو بشار المطلبي المتوفى سنة ١٥٠هـ أو[٣] ١٥١هـ من أوائل الذين كتبوا في السير والمغازي ، ومنه أخذ عبد الملك بن هشام "وكل من تكلم في السير فعليه اعتماده"[٤].

وذكر له من الكتب : كتاب الخلفاء ، رواه عنه الأموي ، وكتاب السيرة والمبتدأ والمغازي .

والشك فيما يرويه بعض الأخباريين له موضع في التراث ، ولاسيما أصحاب القصص والحكايات من ذلك ما يروى عن الشرقي بن قطامي[٥] – وكان من الأخباريين – أنه سئِل : ما كانت العرب تقول في صلاتها على موتاها ؟ فقال : لا أدري ، فكذب عليه السائل وقال : كانوا يقولون :

مـــا كنـــتُ وكواكـــاً ولا وانكـــاً رويدك حتى يبعث الخَلْقَ باعثُه

وربما اعتقد الشرقي في صحة هذا الخبر ورواه .

ومن الأخباريين المحدثين أبو معشر نجيح المدني . توفي أيام الهادي . وله من الكتب : كتاب المغازي[٦].

---

[١] شذرات الذهب : ٢١٨/١ .
[٢] الفهرست : ١٠٣.
[٣] الفهرست : ١٠٥ ، وشذرات الذهب : ٢٣٠/١ .
[٤] شذرات الذهب : ٢٣٠/١.
[٥] المعارف : ٢٣٤ .
[٦] الفهرست : ١٠٥ .

ومنهم أبو اليقظان سحيم بن حفص . وكان من النسّابين "عالماً بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب ، ثقة فيما يرويه" . توفي سنة ١٧٠هـ. وله من الكتب : كتاب حلف تميم بعضها بعضاً ، وكتاب أخبار تميم ، وكتاب نَسَب خِنْدف وأخبارها ، وكتاب النسب الكبير ويحتوي على نسب إياد ، وكِنانة ، وأسد بن خزيمة ، وهذيل بن مدركة ، وقريش ، وبني طابخة ، وقيس عيلان ، وربيعة بن نزار ، وتيم بن مُرّة، وكتاب النوادر[١].

ومن الأخباريين أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن الحارث المتوفى سنة ١٨٨هـ . وكانت له عناية بالسير . ومن كتبه : كتاب السير في الأخبار والأحداث . رواه عنه أبو عمرو معاوية بن عمر الأزدي ، وهو من الأخباريين أيضاً . توفي ببغداد سنة ٢١٥هـ وله من الكتب : كتاب السير والجهاد[٢].

أما هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٦هـ فهو من أكثر الأخباريين تأليفاً . فقد صنف في أخبار العرب في الجاهلية وأيامها وأحلافها ومآثرها وبيوتاتها وقبائلها وألقابها وأديانها. وصنّف في أخبار الإسلام والسيرة النبوية والمغازي وسير الخلفاء .

وابن الكلبي من المبكرين في تأليف كتب البلدان التي كانت مقدمة لعلم الجغرافية فيما بعد . يضاف إلى ذلك أنه خصّ بعض تأليفه بالأخبار والأسمار ، وبذلك هيأ لفن القصة الشعبية في التراث . وربما كان له إطلاع على تاريخ الحضارة العربية الجنوبية وبعض أسفار اليهود في التوراة، واستفاد منها في تأليف كتب عن الأنبياء والأمم والشعوب القديمة .

---

[١] الفهرست : ١٠٧ .
[٢] الفهرست : ١٠٤ ، ١٠٥ .

لذلك كله يمكن جعله من الأخباريين الموسوعيين . وقد اعتمد عليه كثيراً اليعقوبي والطبري والمسعودي وابن قتيبة وغيرهم من أعلام المؤرخين .

وفيما يأتي أهم الكتب التي ذكرها له ابن النديم: [1]

- **كتبه في الأحلاف:** كتاب حِلْف عبد المطلب وخزاعة ، وكتاب حلف الفضول وقصة الغزال وكتاب حلف كلب وتميم، وكتاب المغيرات ، وكتاب حلف أسلم في قريش.
- **كتبه في المآثر والبيوتات والمنافرات والمؤودات:** كتاب المنافرات ، وكتاب بيوتات قريش ، وكتاب المؤودات ، وكتاب بيوتات ربيعة ، وكتاب خطب علي (عليه السلام) ، وكتاب ألقاب قريش ، وكتاب ألقاب قيس عيلان ، وكتاب ألقاب ربيعة ، وكتاب ألقاب اليمن .
- **كتبه في أخبار الأوائل:** كتاب حديث آدم وولده ، وكتاب عاد الأولى والآخرة ، وكتاب أصحاب الكهف ، وكتاب الأوائل ، وكتاب أمثال حمير، وكتاب لغات القرآن ، وكتاب المُعَّمرين ، وكتاب الأصنام ، وكتاب القِداح ، وكتاب أديان العرب ، وكتاب السيوف .
- **كتبه فيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية:** كتاب اليمن وأمر سيف ، وكتاب الوفود ، وكتاب أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكتاب زيد بن حارثة ، وكتاب الديباج في أخبار الشعراء ، وكتاب من فخر بأخواله من قريش ، وكتاب من هاجر وأبوه .
- **كتبه في أخبار الإسلام:** كتاب التأريخ ، وكتاب تأريخ أخبار الخلفاء ، وكتاب المصلين .

---

[1] الفهرست : ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ .

- **كتبه في أخبار البلدان:** كتاب البلدان الكبير ، وكتاب البلدان الصغير ، وكتاب تسمية من بالحجاز من أحياء العرب ، وكتاب قسمة الأرضين ، وكتاب الأنهار، وكتاب الحيرة ، وكتاب منار اليمن ، وكتاب أسواق العرب ، وكتاب الأقاليم .
- **كتبه في أخبار الشعراء وأيام العرب:** كتاب تسمية ما في شعر امرئ القيس من أسماء الرجال والنساء وأنسابهم وأسماء الأرضين والجبال والمياه ، وكتاب المنذر ملك العرب ، وكتاب داحس والغبراء .
- **كتبه في الأخبار والأسمار:** كتاب الفتيان الأربعة ، وكتاب السمر ، وكتاب الآحاديث ، وكتاب المقطعات ، وكتاب عجائب البحر .
- **ومن كتبه أيضاً:** كتاب أولاد الخلفاء ، وكتاب أُمهّات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكتاب العواتك ، وكتاب أُمهات الخلفاء ، وكتاب تسمية ولد عبد المطلب ، وكتاب كُنى آباء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومن الأخباريين المعنيين بتاريخ العرب في الجاهلية والاسلام أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ . وذكر له ابن النديم من الكتب[١]: كتاب المعمَّرين ، وكتاب بيوتات قريش ، وكتاب بيوتات العرب ، وكتاب نسب طَيّء ، وكتب خطط الكوفة، وكتاب ولاة الكوفة ، وكتاب الأشراف الكبير ، وكتاب تأريخ الأشراف الصغير ، وكتاب طبقات الفقهاء والمحدثين ، وكتاب خواتيم الخلفاء ، وكتاب أشراف الكّتاب ، وكتاب حرس الخلفاء ، وكتاب شُرَط الخلفاء ، وكتاب قضاة الكوفة والبصر ، وكتاب تاريخ الخلفاء ، وكتاب الخوارج .

---

[١] الفهرست : ١١٢ .

ومن كبار الأخباريين والمؤرخين في القرن الثاني الهجري المدائني وهو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف . ولد سنة ١٣٥هـ وتوفي سنة ٢١٥هـ أو ٢٢٥هـ .

ترك المدائني كثيراً من الكتب والرسائل تميزت بالموسوعية . وهو يشبه الى حد كبير ابن الكلبي في كونه مصدراً أساسياً للطبري وغيره من المؤرخين . وقد كتب في تواريخ العرب وأيامها وأخبارها في الجاهلية والاسلام ، والمغازي والسير كسير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والخلفاء ، وأخبار الشعراء ، والأشراف ، والقبائل ، والقضاة ... الخ .

وفيما يأتي أهم ما نسبه اليه ابن النديم[1] من الكتب في الموضوعات المذكورة وغيرها:

- **كتبه في أخبار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) برواية أبي الحسن بن الكوفي:**

منها: كتاب أُمهات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكتاب صفة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكتاب أخبار المنافقين ، وكتاب عهود النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكتاب رسائل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، الى الملوك ، وكتاب خطب النبي ، وكتاب عهود النبي ، وكتاب المغازي "وزعم أبو الحسن بن الكوفي أنها عنده في ثمانية أجزاء جلود..." ، وكتاب سرايا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

---

[1] الفهرست : ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ .

- **أخبار قريش:**

منها: كتاب نسب قريش وأخبارها ، وكتاب العباس بن عبد المطلب ، وكتاب أخبار أبي طالب وولده ، وكتاب خطب علي (عليه السلام) ، وكتاب عبد الله بن العباس ، وكتاب علي بن عبد الله بن عباس .

- **كتبه في أخبار مناكح الأشراف وأخبار النساء:**

منها: كتاب الِّصداق ، وكتاب الولائم ، وكتاب المناكح ، وكتاب النواكح .

- **كتبه في أخبار الخلفاء:**

منها: كتاب تسمية الخلفاء وكّتابهم وأعمارهم ، وكتاب تأريخ أعمار الخلفاء ، وكتاب تأريخ الخلفاء ، وكتابُ حلى الخلفاء ، وكتاب أخبار الخلفاء الكبير .

- **كتبه في الأحداث:**

منها: كتاب الردة ، وكتاب الغارات ، وكتاب الخوارج ، وكتاب النهروان ، وكتاب الجمل.

- **كتبه في الفتوح:**

منها: كتاب فتوح الشام أيام أبي بكر ، وأول خبر الشام ، وخبر دمشق ، وكتاب فتوح العراق ، وكتاب خبر البصرة وفتوحها .

- **كتبه في أخبار العرب:**

منها: كتاب البيوتات ، وكتاب أشراف عبد القيس ، وكتاب أخبار ثقيف ، وكتاب من نسب الى أمه ، وكتاب الخيل والرهان ، وكتاب بناء الكعبة .

- **كتبه في أخبار الشعراء:**

منها: كتاب أخبار الشعراء ، وكتاب من نسب الى أمه من الشعراء ، وكتاب العمائر ، وكتاب الشيوخ ، وكتاب المتمثلين ، وكتاب من تمثل بشعر في مرضه.

- **ومن كتبه الأخرى:** كتاب الأوائل ، وكتاب المتيّمين ، وكتاب التعازي، وكتاب المنافرات، وكتاب القيافة والفأل والزِّجْر، وكتاب الحمقاء، وكتاب خصومات الاشراف ،وكتاب الجواهر، وكتاب المغنين ، وكتاب قضاة أهل المدينة ، وكتاب قضاة أهل البصرة ، وكاب ضرب الدراهم والصرف .

ومن الأخباريين الذين عنوا بالسير والأحداث والقصص والحكايات : سيف بن عمر الأسدي التميمي ، وله من الكتب : كتاب الفتوح الكبير والردة ، وكتاب الجمل . وعبد المنعم بن إدريس بن سنان. توفي سنة ٢٢٨هـ ، وله من الكتب : كتاب المبتدأ . ومعمر بن راشد ، من أهل الكوفة ، وله من الكتب : كتاب المغازي . وأبو هلال لقيط بن بكير المحاربي . عاش الى سنة ١٩٠هـ ، وله من الكتب : كتاب السمر، وكتاب الحراب واللصوص وكتاب أخبار الجن[١].

---

[١] الفهرست : ١٠٦ .

الفصل التاسع
الترجمة والنقل

الترجمة والنقل مظهر من مظاهر الأثر الثقافي في تاريخ الحضارة الإسلامية . وهي تدلنا على مختلف التيارات المؤثرة في مسير الإنتاج الفكري والبنية الثقافية والتطور اللغوي المتمثل أساساً في وضع المصطلحات الخاصة بالعلوم والفنون سواء أكانت من أصول عربية عن طريق النحت والاشتقاق والتغير الدلالي ، أم من أصول أجنبية عن طريق التعريب ، وإخضاع الألفاظ المعربة الى البنية الصوتية والصرفية للعربية . ومجمل النظر في تأريخ الترجمة في القرن الثاني الهجري ينطوي على ترجمة العلوم العقلية أساساً بما في ذلك كتب الحكمة الإغريقية ومؤلفات كبار فلاسفة اليونان ، وكتب المنطق ومذاهب الفلاسفة الجدليين.

وكان المهدي أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة الذين ظهر أمرهم في عهده وترك آثاراً ملموسة في الأفكار والأشعار . وزادت الحاجة الى ترجمة كتب الحكمة في خلافة المأمون لأسباب متعددة ليس منها (الغنوص)[1] كما ادعى ذلك بعض المستشرقين المغرضين[2]. والمأمون – كما هو معروف – تبنى فكراً اعتزالياً ومنهجياً عقلياً . وقد أعطى لهذا الفكر والمنهج سمة رسمية، كما سنلاحظ في مسألة خلق القرآن . وكان العلماء المسلمون يحتاجون إلى منطق كلامي يستخدمونه ضد المناوئين والمشككين الذين استعانوا بالمنطق

---

[1] غنوصّية : نسبة الى الكلمة اليونانية (gnosis) ، وتعني المعرفة . وهي حركة فلسفية ودينية نشأت في العصر الهيليني (عهد الاسكندر وما بعده . والهيلينية مزيج من الحضارة اليونانية وحضارات الشرق القديم) وأساسها أن الخلاص يتم بالحكمة والمعرفة أكثر مما يتم بالايمان وأعمال الخير .

[2] انظر : فون كريمر ، الحضارة الإسلامية ٦٦ (أثر رجال الدين والعلماء البيزنطيين في الفكر الفلسفي الاسلامي) . وانظر : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية (مجموعة مقالات لمستشرقين ، ترجمة عبد الرحمن بدوي) .

اليوناني.وظهرت مقدمات علم الكلام الذي بلغ غايته في عصر المأمون ، وكان مقدمة للفلسفة الإسلامية. ونتيجة لهذه الأسباب مجتمعة زاد الإقبال – بتوجيه من السياسة العامة للدولة – على ترجمة كتب الحكمة والفلسفة الإغريقية .

وذكر بعض المؤرخين المسلمين[1] رواية جعل منها سبباً في توجه المأمون إلى التراث الإغريقي . وتفيد هذه الرواية أن المأمون رأى أرسطو في رؤياً حثه فيها على استحسان الحكمة وتعلمها. ونقلت الرواية عن لسان المأمون يصف رؤياه قائلا : "رأيت فيما يرى النائم كأن رجلاً على كرسي جالساً في المجلس الذي أجلس فيه فتعاظَمْتَه وتَهَيْبَته وسألت عنه فقيل هو أرسطو طاليس ، فقلت : أسأله عن شيءٍ ، فسالته فقلت ما الحَسَنْ؟ فقال: ما استحسنته العقول ، فقلت : ثم ماذا ، قال : ما استحسنته الشريعة ، قلت: ثم ماذا ، قال : ما استحسنه الجمهور، قلت ثم ماذا ، قال: ثم لا ثم. فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب..." .

ولا تعنينا مدى صحة هذه الرواية بقدر ما يعنينا الهدف الذي وضعت لأجله . وواضح أن واضع الرواية كان يريد إظهار أهمية العقل ويحاول التوفيق بين الحكمة والشريعة ، وبتعبير آخر إخضاع الدين لسلطان العقل ، وهو الأساس الذي بنى عليه المعتزلة مذهبهم الفكري ومنهجهم العقلي ، وهذا ما يرجح لنا أن واضع الرواية كان منهم .

---

[1] عيون الأنباء ١٤٣/٢ .

وراسل المأمون ملوك الروم وطلب منهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة "فبعثوا إليه منها ما حضرهم فاستجاد لهم مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن"[١].

واختار جماعة من العلماء والمترجمين وأرسلهم وفداً الى القسطنطينية لاختيار الكتب المخزونة ببلد الروم ، منها : الحجاج بن مطر، وابن البطريق ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، ويوحنا بن ماسويه[٢].

وتيسر حال المترجمين في القرن الثاني الهجري وما بعده ، ويروى أن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم : حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة[٣]. ويظهر أنها كانت نفقتهم في الشهر الواحد[٤].

وكان بنو شاكر المنجم وهم محمد وأحمد والحسن من المعنيين بكتب النقل والترجمة ، وقد أنفذوا حنين بن إسحاق وغيره الى بلد الروم فجلبوا لهم كتباً في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثماطيقي والطب[٥].

وبلغت شهرة حنين بن إسحاق في الترجمة وإتقانها مبلغاً كبيراً. ويحكى عن المأمون انه كان يعطي حنيناً من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربي مثلا بمثل[٦].

---

(١) تاريخ مختصر الدول : ١٣٦ .
(٢) الفهرست : ٣٠٤ ، عيون الأنباء : ١٤٣/٢ .
(٣) الفهرست : ٣٠٤ .
(٤) عيون الأنباء : ١٤٣/٢ .
(٥) الفهرست : ٣٠٤ . والأرثماطيقي هو علم العدد ويشمل الكميات المفردة والمضافة والأعداد المسطحة والمجسمة والعيارات وحساب الهند وحساب الجمل ومبادئ الجبر والمقابلة . انظر : مفاتيح العلوم : ١٠٧ .
(٦) عيون الأنباء : ١٤٣/٢ .

وأتقن حنين عمله في الترجمة ، وفضح بإتقانه كثيراً من التدليس والخطأ في أعمال مترجمين معروفين في عصره . ويستفاد هذا المعنى من محاورة بين جبرائيل بن بختيشوع ويوسف بن إبراهيم ناقل الخبر حول حنين . جاء في هذه المحاورة قوله : "... ثم إني دخلت يوماً على جبرائيل بن بختيشوع ، وقد انحدر من معسكر المأمون قبل وفاته بمدة يسيرة ، فوجدت عنده حنيناً وقد ترجم له أقساماً قسمها بعض الروم في كتاب من كتب جالينوس في التشريع ، وهو يخاطبه بالتبجيل ويقول له يا ابن حنين ... فأعظمت ما رأيت وتبيّن ذلك جبرائيل فيّ ، فقال لي لا تستكثرنّ ما ترى من تبجيلي هذا الفتى، فو الله لئن مُدَّ له في العمر ليفضحنّ سرجس ... وليفضحنَّ غيره من المترجمين"[١].

وعرفت في القرن الثاني الهجري بعض الترجمات القليلة للأدب اليوناني، وكانت الترجمة من اليونانية تتم في بعض الأحيان إلى السريانية، ومنها إلى العربية . وذكر عن توفيل بن توما – وهو رئيس منجمي المهدي – نقل كتابي وميروس في فتح مدينة ايليون الى السريانية ووصفت ترجمته بأنها الغاية في الفصاحة والجودة والإتقان[٢]. وفي خلافة المنصور ترجم كتاب كليلة ودمنة من البهلوية ، وكتاب إقليدس[٣] من السريانية . ويظهر أنه ترجم أولاً من اليونانية الى السريانية ، ثم منها الى العربية . وترجمت كتب في علم العدد والهندسة والفلك والنجوم. واشتهر من بين المترجمين للعلوم المذكورة آنفاً مترجمان ، أحدهما : قسطا بن لوقا ، وهو فيلسوف

---

[١] عيون الأنباء : ١٤٣/٢ .
[٢] تاريخ مختصر الدول : ١٢٧.
[٣] أخبار الدول : ١٤٧ .

شامي نصراني من أهالي بعلبك. دخل بلاد الروم وحصل على كتب كثيرة من تصانيفهم . استدعي للعراق للقيام بترجمة الكتب اليونانية الى العربية . وعاصر الفيلسوف المعروف يعقوب بن إسحاق الكندي "وكان قسطا متحققاً بعلم العدد والهندسة والنجوم والمنطق والعلوم الطبيعية ماهراً في صناعة الطب"[١]. والآخر : عمر بن الفرخّان الطبري : أحد رؤساء التراجمة والمتحققين بعلم حركات النجوم وأحكامها . كان منقطعاً إلى يحيى بن خالد بن برمك ، ثم انقطع الى الفضل بن سهل وزير المأمون الذي استدعاه من بلده – وكان قد عاد إليها – ووصله بالمأمون ، فترجم له كتباً كثيرة في النجوم وغير ذلك من فنون الفلسفة منها : كتاب تفسير الأربع مقالات لبطليموس من نقل ابن يحيى البطريق ، وكتاب المحاسن ، وكتاب اتفاق الفلاسفة واختلافهم[٢].

وكانت العلوم العقلية موضع عناية المترجمين ، فترجمت معظم كتب الفلسفة والمنطق المعروفة التي عدت الأصول في هذا الفن من فنون المعرفة . وتصدر لذلك مترجمون مهرة عرفوا بالضبط والإتقان . منهم : الفضل بن نوبخت، وقد عاصر الرشيد وولاه القيام بخزانة كتب الحكمة ، ونقل ما توفر لديه منها الى العربية[٣]. وأشهرهم حنين بن إسحاق الطبيب النصراني ، ويكنى أبا زيد العبادي . وكان تلميذاً ليوحنا بن ماسويه . وتصدر لترجمة كتب الحكمة من السريانية الى العربية . وتخير له المتوكل

---

[١] إخبار العلماء : ١٧٣ .
[٢] إخبار العلماء : ١٦١ ، ١٦٢ .
[٣] إخبار العلماء : ١٦٦ .

مجموعة من المترجمين يعملون بأشرافه كإصطفن بن بسيل وموسى بن خالد الترجماني ويحيى بن هارون . وجمع حنين في معرفته بين اليونانية والسريانية[١] والعربية وبرع فيها جميعاً ، وأضاف اليها معرفته بالأدب والخطابة ، "وتعلم لسان اليونانية بأصله . وكان جليلاً في ترجمته ، وهو الذي أوضح معاني كتب بقراط وجالينوس ولخصها أحسن تلخيص وكشف ما استغلق منها"[٢]. وأحضره المأمون وسأله نقل كتب الحكماء اليونانيين الى العربية وبذل له الكثير من الأموال والعطايا.

وكان حنين لا ينقل للخلفاء فقط فقد نقل لبعض العلماء ، منهم يوحنا بن ماسويه شيخه الذي ترجم له كتباً كثيرة ، ولاسيما كتب جالينوس . ترجم بعضها الى السريانية ، وبعضها الى العربية[٣]. وكان له كاتب يعرف بالأزرق ، وذكر ابن أبي أصيبعة[٤] أنه رأى كتباً من كتب جالينوس وغيره بخطه "وبعضها عليه تنكيت بخط حنين بن إسحاق باليوناني وعلى تلك الكتب علامة المأمون". ويظهر أن دقة حنين في الترجمة وإتقانه لها فاقت جميع معاصريه من المترجمين ، وقد قارن أحد العلماء[٥] بين ترجمة موسى بن خالد لبعض كتب جالينوس الستة عشر، وترجمة حنين لها فوجد بين الترجمتين تفاوتاً كثيراً . ويبدو أن السبب في ذلك – سوى إتقان حنين لعمله – أنه نقلها من اليونانية مباشرة ، على حين نقلها موسى بن خالد من

---

[١] عيون الأنباء : ١٤٢/٢.
[٢] إخبار العلماء : ١١٨ .
[٣] عيون الأنباء : ١٤٢/٢ .
[٤] عيون الأنباء : ١٤٤/٢ .
[٥] عيون الأنباء : ١٤٦/٢ .

السريانية واعتمد في ذلك على ترجمة سرجس المتطبب لهذه الكتب من اليونانية الى السريانية ، ورأينا فيما تقدم أن سرجس كان من الذين لا يعول على ترجمتهم كثيراً.

ولذلك اعتمد المأمون كثيراً على حنين وأوكل اليه أمر الترجمة والإشراف على المترجمين وإصلاح ما ينقلونه .

ومن المترجمين في عصر المأمون يوحنا بن البطريق ، و"كان أميناً على ترجمة الكتب الحكمية حسن التأدية للمعاني ألكن اللسان في العربية"[١] وغلبت عليه ترجمة كتب الفلسفة .

وتأتي ترجمة الكتب الطبية في المرتبة الثانية بعد كتب الفلسفة . ومعظم هذه الكتب نقلت من اليونانية مباشرة أو عن طريق السريانية الى العربية . وتصدر جماعة من المترجمين لترجمتها كان من بينهم أطباء وعلماء . منهم : ماسرجويه ، وقد نقل كتاب أهرن من السيريانية الى العربية[٢]. ومنهم يوحنا بن ماسويه طبيب الرشيد ، وكان سريانيا مسيحياً . قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون . ووضعه أميناً على الترجمة[٣]. ومنهم أيضاً : يوحنا البطريق الترجمان مولى المأمون . وتولى ترجمة كتب أرسطو خاصة، وترجم بعضاً من كتب بقراط[٤].

---

[١] تاريخ مختصر الدول : ١٣٨ .
[٢] عيون الأنباء : ١٠٤/٢ .
[٣] عيون الأنباء : ١٢٣/٢ ، إخبار العلماء : ٢٤٩ ، تاريخ مختصر الدول : ١٣١ .
[٤] إخبار العلماء : ٢٤٨ .

وفيما يأتي ثبت بأشهر المترجمين في القرن الثاني وما بعده وعليهم تعليقات لابن أبي أصيبعة: [1]

١. **جورجس:** هو أول من ابتدأ بنقل الكتب الطبية الى العربية حين استدعاء المنصور.

٢. **حنين بن إسحاق:** كان عالماً باللغات الأربع غريبها ومستعملها : العربية والسريانية واليونانية والفارسية . ونقله في غاية من الجودة .

٣. **إسحاق بن حنين:** كان عالماً باللغات التي يعرفها أبوه ، وهو يلحق به في النقل.

٤. **حبيش الأعسم:** وهو ابن اخت حنين وتلميذه . ناقل مجود يلحق بحنين وإسحاق.

٥. **عيسى بن يحيى بن إبراهيم:** كان تلميذاً لحنين.

٦. **قسطا بن لوقا البعلبكي:** ناقل خبير باللغات ، فاضل في العلوم الحكمية.

٧. **أيوب المعروف بالأبرش:** قليل النقل متوسطه . وما نقله في آخر عمره يضاهي نقل حنين.

٨. **ماسرجيس:** كان ناقلاً من السرياني الى العربي ، ومشهوراً بالطب .

٩. **عيسى بن ماسرجيس:** كان يلحق بأبيه .

١٠. **شهدي الكرخي:** من أهل الكرخ ، وكان غريب الحال في الترجمة .

---

[1] عيون الأنباء : ١٧١/٢ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ .

١١. **ابن شهدي الكرخي:** كان مثل أبيه في النقل ، ثم انه في آخر عمره فاق أباه . ولم يزل متوسطاً . وكان ينقل من السرياني إلى العربي . ومن نقله كتاب الأجنة لأبقراط .

١٢. **الحجاج بن مطر:** نقل للمأمون . ومن نَقْله كتاب اقليدس ، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحرّاني .

١٣. **هلال بن أبي هلال الحمصي:** كان صحيح النقل . ولم يكن عنده فصاحة ولا بلاغة في اللفظ.

١٤. **فثيون الترجمان:** وجدت نقله كثير اللحن . ولم يكن يعرف علم العربية أصلاً.

١٥. **أبو نصر بن ناري بن أيوب:** كان قليل النقل . ولم يعتد بنقله كغيره من النقلة .

١٦. **بسيل المطران:** نقل كتباً كثيرة ، وكان نقله أميل إلى الجودة .

١٧. **اصطفن بن بسيل:** كان يقارب حنين بن إسحاق في النقل، إلاّ أن عبارة حنين أفصح وأحلى .

١٨. **موسى بن خالد الترجمان:** وجدت من نقله كتباً كثيرة من الستة عشر لجالينوس وغيرها . وكان لا يصل الى درجة حنين أو يقرب منها .

١٩. **اسطاث:** كان من النقلة المتوسطين .

٢٠. **جيرون بن رابطة:** ليس له شهرة بجودة النقل .

٢١. **تدرس السنقل:** وجدت له نقلاً في الكتب الحكمية لا بأس به .

٢٢. **سرجس الرأسي:** من مدينة رأس العين . نقل كتباً كثيرة ، وكان متوسطاً في النقل وكان حنين يصلح نقله ، فما وجد بإصلاح حنين فهو الجيد ، وما وجد غير مصلح فهو وسط .

٢٣. **أيوب الرهاوي:** ناقل جيد عالم باللغات ، إلا أنه بالسريانية خير منه بالعربية .

٢٤. **يوسف الناقل ، أبو يعقوب يوسف بن عيسى المتطبب الناقل:** ليس نقله بكثير الجودة .

٢٥. **إبراهيم بن الصلت:** كان متوسطاً في النقل .

٢٦. **ثابت الناقل.**

٢٧. **أبو يوسف الكاتب:** نقل عدة كتب من كتب أبقراط .

٢٨. **يوحنا بن بختيشوع:** نقل كتباً كثيرة الى السرياني ، فأما الى العربي فما عرف بنقله شيء منها .

٢٩. **البطريق:** كان في أيام المنصور ، وأمره بنقل أشياء من الكتب القديمة . وله نقل كثير جيد ، إلا أنه دون نقل حنين بن إسحاق . وقد وجدت بنقله كتباً كثيرة في الطب من كتب أبقراط وجالينوس.

٣٠. **يحيى بن البطريق:** كان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية . وإنما كان لَطِينياً [لاتينياً] يعرف لغة الروم اليوم وكتابتها ، وهي الحروف المتصلة لا المنفصلة اليونانية القديمة .

٣١. **قسطا الرهاوي:** كان إذا كثرت على حنين الكتب وضاق عليه الوقت استعان به في نقلها ، ثم يصلحها بعد ذلك .

٣٢. **منصور بن باناس.**

٣٣. **عبد يشوع بن بهريز .**

٣٤. **أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي .**

٣٥. **أبو إسحاق إبراهيم بن بكس .**

الفصل العاشر
المذاهب والعلوم العقلية

يمثل القرن الثاني الهجري مرحلة خطيرة ذات أهمية مخصوصة من حيث ظهور المذاهب الفكرية والتيارات الثقافية في تأريخ الحضارة الإسلامية؛ ففي هذه المرحلة من التأريخ ظهرت أغلب المذاهب العقلية ذات المنهج الجدلي، وفيها وضعت أسس علم الكلام الذي يمكن عدّه مقدمة للفلسفة الإسلامية، واتضحت مقالات أصحاب الآراء ، واحتدم النقاش في مسائل مختلفة، وظهرت الكتب والرسائل لإثبات الأفكار أو لنفيها ، واشتدت الخصومة الفكرية بين أصحاب المقالات ، وطرحت موضوعات للنقاش والجدل ، منها ما يتصل بقضايا ما وراء الطبيعة كصفات الله تعالى، والعدل الإلهي ، والإيمان ، والكفر ، والجنة ، والنار، والعقاب ، والثواب ، والروح ، والبعث ، والنشور ، والجن ، والشياطين . ومنها ما كان له علاقة بالانسان من الناحية السلوكية ، كالجبر ، والاختيار ، ومعنى المؤمن والفاسق والمنزلة بين المنزلتين ، والهدف العملي من الأديان .

ودخل المنطق بفعل مؤثرات أجنبية – جاءت نتيجة لامتزاج الثقافات – ساحة الصراع . وأستخدم سلاحاً لدى أصحاب الآراء والمقالات على اختلاف أفكارهم . وأُستعين به في رد الخصومات ودعم المواقف وتثبيتها .

وكانت نتيجة ذلك كله انتعاش الحياة الثقافية في القرن الثاني الهجري ، ودفع الحضارة إلى مزيد من التطور والنمو والارتقاء . وبدا تأثير هذه النهضة الثقافية واضحاً في مجمل الإنتاج الأدبي والفكري للأدباء والشعراء والعلماء ، وتعدى ذلك الى عامة الناس ، فأخذ كلٌ يدلي بدلوه ، ويتفهم – على نحو واضح أو غامض ، صحيح أو خاطئ – ثقافات العصر . وشاعت ألفاظ ومصطلحات حضارية في الشعر والكتابة ، وبدأ

تقويم جديد للغة يظهر في جمع هذه الألفاظ والمصطلحات . وفرض التجديد والتوليد والتعريب للألفاظ نمطاً مستحدثاً من الأساليب والتركيب ما أدى إلى توسيع المضامين الدلالية للعربية وجعلها صالحة ميسرة للاستخدام العلمي يضاف إلى ذلك الاستخدام الأدبي الذي عرفت به.

ومن أوائل المصطلحات المذهبية التي ظهرت في القرن الثاني الهجري عبارتا (الإرجاء) و (المرجئ) . و (المرجئ) : هو الذي يعتقد بالإرجاء أو يقول به ، ويطلق على جميعهم (المُرْجِئة)[1].

وهي مقالة قديمة يبدو أن لها أصولاً في القرن الأول الهجري، روّج لها بنو أمية لتبرير أفعالهم المنكرة وسلوكهم البغيض تجاه أهل البيت (ع) ومن خالفهم من المسلمين .

وكانت (الجبرية) أو (المجّبرة) طائفة أخرى أطلق عليها هذا المصطلح أخذاً من معنى (الجبر) في مقابل الاختيار. وعقائدهم تتصل بسلوك الإنسان وعمله الخير أو الشر، وهم يسندون فعل العبد إلى الله[2]. ومن متكلميهم : حفص الفرد . ويكنى أبا عمر كان من أهل مصر. قدم البصرة وسمع من أبي الهذيل واجتمع معه وناظره . وكان في أول أمره معتزلياً، ثم قال بخلق الأفعال. وله كتب ورسائل ، منها : كتاب الاستطاعة، وكتاب التوحيد، وكتاب في المخلوق رداً على أبي الهذيل ، وكتاب الرد على المعتزلة[3].

---

(1) المُرْجئة : قوم يقولون لا يضرُّ مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، التعريفات : ١١٠ .

(2) التعريفات : ٤٠ .

(3) الفهرست : ٢٣٠ .

ومنهم أيضاً أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله النجار. "من المجبرة ومتكلميهم ... له مع النظّام مجالس ومناظرات". ومن كتبه : كتاب الاستطاعة ، وكتاب المخلوق، وكتاب الصفات والأسماء، وكتاب إثبات الرسل ، وكتاب الإرجاء ، وكتاب القضاء والقدر، وكتاب الثواب والعقاب[1].

وبخلاف الجبرية كانت (القَدَريّة) ترى أن الإنسان خالق لفعله ، وليس الكفر والمعاصي بتقدير الله[2]. وأصل الكلمة مشتقة من (القَدْر) بمعنى الاستطاعة والتمكن. وهي مقالة قريبة من المعتزلة، وربما عّول عليها المعتزلة في كثير من أصولهم إذ أصبحت الكلمتان مترادفتين عند كثير من الناس .

والظاهر أن (القدرية) أو القول بالقدر من الأفكار التي نجد لها أصولاً في القرن الأول الهجري . وفي مطلع المائة الثانية يظهر رجل في خلافة عمر بن عبد العزيز يدعى غَيْلان يقول بالقدر[3]. وعلى الرغم من الغموض الذي يحيط بهذا الرجل وقلة المصادر المتوافرة عنه إلا أن فكرة القدر سرعان ما جمعت طائفة من الناس حولها، وأخذت سبيلها إلى داخل البلاط الأموي نفسه ، وإن كان الأمويون يتعاملون بحذر مع مثل هذه الأفكار، وكانوا يفضلون عليها فكرة الإرجاء لأغراض تتصل بسياسة الدولة.

---

(1) الفهرست : ٢٢٩ .
(2) التعريفات : ٩٢ .
(3) تاريخ الخلفاء : ٢٤٣ .

ونسمع عن خليفة مثل يزيد بن الوليد المتوفى سنة ١٢٦هـ يذهب في رأيه مذهب القدرية[١] ولم يكتف بذلك بل "دعا الناس الى القدر وحملهم عليه وقرب أصحاب غيلان"[٢].

وربطت بعض المصادر بين إظهار يزيد الثاني للتنسك والقول بالقدر[٣]. وهو ربط غريب بين أفكار صوفية قوامها الروحانيات ، وأفكار جدلية قوامها العقلانيات في شخصية مثل يزيد الثاني إذ لم يعرف التنسك عن بني أمية حتى على سبيل الرياء .

ومن المفسرين الذين كانوا يقولون بالقدر عبد الله بن أبي نجيح المكي . وكان صاحب مجاهد وتوفي سنة ١٣١هـ[٤].

ووقف بعض علماء الحديث موقفاً حذراً من القدرية، وضعّفوا رجالاً في الأسانيد لمجرد قولهم بالقدر، وذكر عن عبد الحميد بن جعفر الأنصاري المتوفى سنة ١٥٣هـ أنه روى عن المقيري وجماعة ، وخرج له مسلم والأربعة [أي أصحاب الصحاح] . قال في المغني "صدوق ضعّفه القطّان ، وفيه قدرية"[٥].

ومثل ذلك يروى عن أبي خالد ثور بن يزيد الكلاعي الحافظ المتوفى سنة ١٥٣هـ وهو مُحدّث حِمْص. روى عن خالد بن معدان وطبقته. و"كان يرى القدر ولذلك نفاه أهل حمص. وخرج له البخاري والأربعة. قال في المغني: ثقة من مشاهير القدرية"[٦].

---

(١) تأريخ الرسل والملوك : ٢٩٨/٧ .
(٢) تاريخ الخلفاء : ٢٥٣ .
(٣) الفخري : ١٣٦ .
(٤) شذرات الذهب : ١٨٢/١ .
(٥) شذرات الذهب : ٢٣٥/١.
(٦) شذرات الذهب : ٢٣٤/١ .

ومن رجال السند ورواة الحديث هشام بن أبي عبد الله الحافظ البصري الدستوائي المتوفى سنة ١٥٣هـ أو ١٥٤هـ . قال ابن قتيبة "هو هشام بن أبي عبد الله سنبر مولى لبني سدوس. يُرمى بالقدر"[١].

وهذا التشدد من المحدثين على القدرية كان له ما يبرره لدعم السلطة السياسية لموقفهم في صدر الخلافة العباسية. وربما كان المهدي من أكثر الخلفاء تشدداً في مطاردة القدرية حتى أنه كتب إلى عامله على المدينة جعفر بن سليمان "أن يحمل اليه جماعة اتهموا بالقدر فحمل إليه رجالاً..."[٢].

وعلى النقيض من ذلك كان المأمون أول خليفة قرب إليه المعتزلة، ونادى جهاراً بمبادئهم وألزم الناس بها . ومن المعروف أن المعتزلة قدرية قالوا بان العبد مختار في عمله ، ونفوا عن الله تعالى فعل الشعر .

وتقدم الكلام على شغف المأمون بالحكمة وأمره باستخراج كتب الفلاسفة اليونان وإرساله البعوث الى القسطنطينية وجزيرة قبرص[٣] ليحملوا إلى بغداد ما يجدونه من تراث الإغريق في الفلسفة والطب والهندسة، "وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها وحلّ إقليدس ونظر في علوم الأوائل وتكلم في الطب وقرب أهل الحكمة"[٤].

وشارك المأمون في التأليف. ونسب إليه ابن النديم كتباً، منها : كتاب جواب ملك البرغر فيما سُئل عنه من أمور الإسلام والتوحيد، ورسالته

---

[١] شذرات الذهب : ٢٣٥/١ .
[٢] تأريخ الرسل والملوك : ١٧٨/٨ .
[٣] تاريخ الخلفاء : ٣٢٧ .
[٤] الفخري : ٢١٦ .

في حجج مناقب الخلفاء بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ورسالته في أعلام النبوة[١].

ومن مبادئ القدرية قولهم بخلق القرآن[٢]. وقد تمسك المأمون بهذا المبدأ ، وتشددّ فيه ، وجعله من المبادئ الرسمية للدولة .

وذكر بعض المؤرخين أن القول بخلق القرآن كان من اختراعات المأمون "وفي أيامه نشأت هذه المقالة"[٣]. ولكن من المحقق أن الفكرة أسبق من المأمون ، ونجد لها أصولاً في أواخر الدولة الأموية. ولما كان القول بخلق القرآن له علاقة بالقدرية ، علل بعض المؤرخين تلقيب مروان بن محمد أخر خلفاء بني أمية بالجعدي "لأنه أخذ عن الجعد بن درهم مذهبه في الكلام في القول بخلق القرآن والقدر"[٤]. ولكن المأمون جعل من مسألة خلق القرآن وغيرها من المسائل المتصلة بالمعتزلة مبدأ رسمياً للدولة كما تقدم القول. ومن هنا نسبت إليه فكرة القول بخلق القرآن . وكتب بذلك إلى عماله على الولايات، وكتب إلى إسحاق بن ابراهيم في أشخاص بعض العلماء والقضاة والمحدّثين اليه في الرقّة ، فأُشخصوا إليه ، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق ، فأشخصهم الى مدينة السلام ، وأحضرهم إسحاق بن ابراهيم داره ، فشهر أمرهم وقولهم

---

(١) الفهرست : ١٢٩ .

(٢) اتفق المعتزلة على القول بحدوث كلام الله عز وجل ، وحدوث أمره ونهيه وخبره . ويسمون كلامه مخلوقا . انظر : البغدادي ، الفرق بين الفرق ٩٤ . والمراد من ان كلامه مخلوق هو أنه "مُحْدَثٌ مخلوق في محل ، وهو حرف وصوت كُتِبَ أمثاله في المصاحف حكايات عنه . فان ما وجد في المحل عَرَضُ قد فني في الحال" الشهرستاني : الملل والنحل ٤٥/١ .

(٣) الفخري : ٢١٦ .

(٤) مآثر الإنافة : ١٦٢/١ .

بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فأقّرَوا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلى سبيلهم .

ومما ورد في كتاب المأمون إلى إسحاق بن ابراهيم الذي بعثه إليه سنة ٢١٨هـ[١]:

"... وذلك أنهم سووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين ، واتفقوا غير متعاجمين، على أنه قديم أول لم يخلقه الله ويُحدثه ويخترعه.

..... فاستطالوا بذلك على الناس ، وغروا به الجهّال، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب ، والتخشع لغير الله ، والتقشف لغير الدين، إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيئ آرائهم ، تزّيناً بذلك عندهم ، وتصنّعاً للرياسة والعدالة فيهم .

..... فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون ، في خلق الله والقرآن وإحداثه .... فإذا أقروا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فمرهم بنصّ[٢] من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق مُحْدَث ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده .

..... واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم ؛ والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم اشرفْ عليهم وتفقدّ آثارهم حتى لا تنفذ أحكامُ الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد،

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ٦٣١/٨ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ .

[٢] نَصّه : استقضى مسألته عن الشيء .

واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك. إن شاء الله. وكتب في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائتين".

وأحضر إسحاق بن إبراهيم جماعة من العلماء والفقهاء والمحدثين، وقرأ عليهم كتاب المأمون. وأقر أغلبهم بخلق القرآن. وبقي نفر قليل لم يقر بذلك فاضطر إسحاق الى ضربهم ، وكان من بينهم أحمد بن حنبل الذي لم يثبت ولم ينف[1]. وأوصى المأمون الى أخيه المعتصم متابعة هذه المسألة بيد أن المعتصم كان من ذوي النزعة العسكرية ولم تعرف عنه عناية بالعلوم العقلية والحكمية وعلم الكلام والأصول .

وظهرت في القرن الثاني الهجري اتجاهات فكرية ذات أصول أجنبية ، كان من أبرزها ما عرف بالزندقة . وهي كلمة اتسع مدلولها وانتقلت إلى عدة مجالات دلالية . ومن جملة ما دلت عليه : الخروج على العقائد الدينية سواء أكانت من المبادئ والأصول أن من الفروع . وأطلقت كلمة (زنديق) وهي الصفة للمفرد وتجمع على (زنادقة) – على المتثقف بثقافات أجنبية ذات أصول ثنوية ، وبما استعملت مرادفة للمجوسي او المانوي . ومن استعمالاتها الاجتماعية دلالتها على الظرف في القول وخفة الروح وحسن البداهة والأخذ من كل فن بطرف؛ فيكون الزنديق بهذا المعنى هو اللبق في كلامه الحسن المعاشرة والمنادمة الذي يكون كلامه أقرب إلى الملح والنوادر. وهذا الاستعمال من التطورات الدلالية العجيبة للكلمة. والقارئ لكتب الملح والنوادر يجد فيها كثيراً من أخبار الزنادقة بالمدلول الآنف الذكر، ككتاب الظرف والظرفاء للوشاء ، وأخبار الظرّاف والمتماجنين لابن الجوزي ، ولطائف اللطف للثعالبي ، وغيرها .

---

[1] تأريخ الرسل والملوك : ٦٣٧/٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٤ .

ومن الإشارات المبكر للاتهام بالزندقة ما روي عن الوليد بن يزيد من أن بني أمية وأهل الشام رموه بالزندقة. وقالوا عنه إنه كافر، واتهموه بالمجون والخلاعة والاستخفاف بالدين[١].

وكان المهدي من أكثر العباسيين تشدداً على الزنادقة . وفي سنة ١٦٧هـ جَدَّ في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم ، وولّى أمرهم عمر الكواذي[٢]، وكان يعرف بصاحب الزنادقة ، فحبس وقتل منهم جماعة على الظن والتهمة . ولم تكن هناك موازين محددة للاتهام بالزندقة ويكفي أن يكون الشخص غير مرغوب فيه لسبب من الأسباب لكي يواجه بمثل هذه التهمة .

ودأب المهدي على مواجهة الزنادقة بسلاح العلم ، فأمر بتصنيف كتب الجدل في الرد عليهم[٣]. وفي سنة ١٦٨هـ مات عمر الكلواذي ، فولى المهدي مكانه حمدويه ، وهو محمد بن عيسى من أهل ميسان[٤]. وفي سنة ١٦٩هـ اشتد الطلب على الزنادقة، وقُتل منهم جماعة[٥]. ويبدو أن الزنادقة، أو من اتهموا بها، كانوا يثقفون أنفسهم بثقافات أجنبية ولاسيما بعض فنون الكلام والمعايير الجدلية المستمدة من السوفسطائية اليونانية التي كانت تعنى عادة بظواهر الكلام واللعب بالألفاظ وقلب الحقائق . وفي محاورة جرت بين أبي الهذيل العلاف – وهو من كبار المعتزلة – وصالح بن عبد القدوس – وهو من المتهمين بالزندقة نلاحظ هذا الأثر السوفسطائي واضحاً في مذهب الزنادقة الكلامي ، وربما استعملوه على

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ٢٣٢/٧ .
[٢] تأريخ الرسل والملوك : ١٦٥/٨.
[٣] تاريخ الخلفاء : ٢٧١ ، وأخبار الدول : ١٤٨ .
[٤] تأريخ الرسل والملوك : ١٦٧/٨ .
[٥] تأريخ الرسل والملوك : ١٩٠/٨ .

سبيل التظرف والاستخفاف . قال ابن النديم[1] "... مات ابن لصالح بن عبد القدوس فجزع عليه ووافاه أبو الهذيل كالمتوجع له ؛ فرآه خَرِفاً ، فقال له أبو الهذيل : لا أعرف لجزعك عليه وجهاً إذ كان الإنسان عندك كالزرع . قال صالح : يا أبا الهذيل : إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك؛ فقال له : كتاب الشكوك ما هو يا صالح ؟ . قال : هو كتاب وضعته من قرأه يشك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وما لم يكن حتى يتوهم أنه قد كان" .

وتعد المعتزلة من أكثر الفرق التزاماً بالمنهج العقلي الاستدلالي في القرن الثاني الهجري . وبدأت عقائدهم تستحوذ على الأفكار منذ نشأتها . ولقيت استجابة من بعض الخلفاء ، وليس غريباً أن نجد أموياً كيزيد بن الوليد (توفي سنة ١٢٦هـ) يذهب الى ما يذهبون اليه في الأصول الخمسة[2]: التوحيد[3]، والعدل[4]، والأسماء والأحكام وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين[5]، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهو دليل على شيوع أفكارهم ونفوذها حتى في الأوساط المخالفة.

وكان أبو حذيفة واصل بن عطاء من متقدمي المعتزلة . ولد سنة ٨٠هـ ، وتوفي سنة ١٣١هـ . ولقي أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية،

---

(١) الفهرست : ٢٠٤ .

(٢) مروج الذهب : ٢٣٤/٣.

(٣) اتفق المعتزلة "على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ، ونفي التشبيه عنه من كل وجه : جهة ومكاناً وصورة وجسماً وتحيزاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً . وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط توحيداً" الملل والنحل ٤٥/١.

(٤) العدل في رأي المعتزلة هو اتفاقهم "على أن الله تعالى لا يفعل الا الصلاح والخير . ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد . الملل والنحل : ٤٥/١.

(٥) القول بالمنزلة بين المنزلتين كما ذكر البغدادي هو اتفاقهم على دعواهم في الفاسق من أمة الإسلام بالمنزلة بين المنزلتين ، وهي أنه فاسق لا مؤمن ولا كافر" الفرق بين الفرق: ٩٤.

ولازم مجالس الحسن البصري . من كتبه : كتاب المنزلة بين المنزلتين وكتاب الفتيا وكتاب التوحيد[١].

ومن متقدميهم الذين أدركوا الدولتين أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب المتوفى سنة ١٤٤هـ . كان صديقاً لأبي جعفر المنصور وله مع أخبار[٢]. ومن كتبه : كتاب التفسير عن الحسن [البصري] ، وكتاب العدل والتوحيد ، وكتاب الرد على القدرية[٣].

ومن شيوخ المعتزلة أبو أسحاق إبراهيم بن سيّار بن هاني النظّام. وذكر له ابن النديم من الكتب : كتاب التوحيد ، وكتاب الرد على الدهرية، وكتاب الرد على أصحاب الهيولي ، وكتاب الرد على أصحاب الاثنين، وكتاب القدر، وكتاب المخلوق على المجَبّرة ، وكتاب في العدل، وكتاب الوعيد ، وكتاب المنطق وكتاب الجواهر والأعراض ، وكتاب الرد على المرجئة[٤].

---

[١] الفهرست : ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

[٢] الفهرست : ٢٠٣ .

[٣] كان واصل بن عطاء ملازماً للحسن البصري في مسجد البصرة . ولما دار النقاش حول الفاسق وهل أنه مؤمن أو كافر؟ رأى واصل بن عطاء أن الفسق منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان ؛ فلما سمع الحسن البصري من واصل هذا الرأي طرده عن مجلسه فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة ، وانضم إليه عمرو بن عبيد "فقال الناس يومئذ فيهما إنهما قد اعتزلا قول الأمة وسمي أتباعهما من يومئذ المعتزلة" . وهذا من جملة الآراء في سبب تسميتهم بالمعتزلة . انظر : الفرق بين الفرق ٩٨ وكان واصل وعمرو يدعوان الى قول القدرية على رأي معبد الجهني= =كما أفاد البغدادي لذلك فمن المحتمل أن عمرو بن عبيد قد ألف كتابه المذكور آنفاً في الرد على القدرية قبل اعتزاله مع واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري .

[٤] الفهرست : ٢٠٦ .

ومن متكلميهم أبو علي عمرو بن فائد الأُسْواري . وكان من كبار متكلمي البصرة "لقي عمرو بن عبيد وأخذ عنه . وله مع عمرو مناظرات . وتوفي بعد المائتين بشيء يسير"[١].

ومن كبار المعتزلة ورؤسائهم أبو سهل بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠هـ ؛ من الكوفة ، ويقال من بغداد. "إليه انتهت الرئاسة في وقته" . وله من الكتب : كتاب الرد على مَنْ عاب الكلام، وكتاب الرد على الخوارج ، وكتاب الكفر والإيمان ، وكتاب الوعيد على المجبرة ، وكتاب العدل ، وكتاب في المنزلة بين المنزلتين[٢].

وكان أبو موسى عيسى بن صبيح المتوفى سنة ٢٢٦هـ هو من أوائل الذين نقلوا فكر المعتزلة الى بغداد وقد أخذ عن بشر بن المعتمر ، وقال عنه ابن النديم "وهو الذي أظهر الاعتزال ببغداد وعنه انتشر وفشا". ومن كتبه : كتاب التوحيد ، وكتاب الرد على المجبرة ، وكتاب العدل ، وكتاب المسائل والجوابات ، وكتاب الرد على النصارى ، وكتاب التعديل والتجويز ، وكتاب الرد على الجهمية كتاب أصول الدين ، وكتاب خلق القرآن ، وكتاب فنون الكلام[٣].

ومن كبار المعتزلة ممن أدرك القرنين الثاني والثالث الهجريين أبو الهذيل العلاّف المتوفى سنة ٢٣٥هـ . وذكر له ابن النديم من الكتب: كتاب الإمامة على هشام ، وكتاب على أبي شمر في الإرجاء ، وكتاب على السوفسطائية ، وكتاب على المجوس ، وكتاب على اليهود ، وكتاب الوعد والوعيد ، وكتاب صفة الله بالعدل ونفي القبيح ، وكتاب على

---

[١] الفهرست : ٢٠٥ .
[٢] الفهرست : ٢٠٥ .
[٣] الفهرست : ٢٠٥ .

النصارى ، وكتاب الرد على القدرية والجبرية ، وكتاب الرد على الثنوية، وكتاب الجواهر والأعراض[١].

وكانت العلوم العقلية التي ظهرت في القرن الثاني من علم الكلام والمنطق والمعارف الحكمية مقدمة للفلسفة الإسلامية في القرون التي تلت القرن الثاني والمتتبع للفكر الفلسفي في التراث يجد أصول الفلسفة في القضايا والمشاكل التي كانت مطروحة للمناقشة في الفترات المتقدمة من تأريخ الحضارة الإسلامية . لذلك فمن البديهة أن نجد دراسات فلسفية في القرن الثاني الهجري ذات طبيعة تخصصية وبرز في هذا المجال أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي . وكان كما وصف : "فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها . ويسمى فيلسوف العرب"[٢]. وترك تراثاً ضخماً من الكتب والرسائل بلغت فيما أحصاها ابن أبي أصيبعة[٣] (٢٦٧) كتاباً ورسالة في مختلف العلوم والفنون من فلسفة وهندسة وحساب وطب وموسيقى وغيرها . وإن كان الغالب عليه التأليف في موضوعات الفلسفة بتقسيمها اليوناني كالإلهيات والمنطقيات والطبيعيات والسياسيات . وهو تقسيم درج عليه من جاء بعده من فلاسفة المسلمين كابن سينا والفارابي وابن رشد . وذكر له ابن النديم فهرساً مطولاً لجميع مؤلفاته التي رأها أو التي سمع بها موزعة على الموضوعات الآتية : كتبه الفلسفية ، وكتبه المنطقية، وكتبه الحسابيات ، وكتبه الكريات ، وكتبه الموسيقيات ، وكتبه النجوميات ، وكتبه الهندسيات ، وكتبه الفلكيات ، وكتبه الإحداثيات، وكتبه الأبعاديات ، وكتبه التقدميات ، وكتبه الأنواعيات[٤].

---

[١] الفهرست : ٢٠٤ .
[٢] الفهرست : ٣١٥ .
[٣] عيون الأنباء : ١٨٣/٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠.
[٤] الفهرست : من ص ٣١٥ إلى ص ٣٢٠ .

الفصل الحادي عشر
الطب

الطب من المعارف القديمة التي عرفت في مختلف المجتمعات الإنسانية على اختلاف نصيبها من الحضارة والمدنية وعرف أيضاً في المجتمعات البدائية على نحو يرتبط في الغالب بالسحر والإيهام . وأينما وجدت الأمراض وجدت معارف طبية . والعلاقة بين السحر والطلب قديمة قدم الأجناس البشرية ، وهي علاقة تظهر مدى الترابط بين العالمين المعنوي والمادي . وثمة أفكار كانت سائدة في بعض الحضارات القديمة تربط بين عالم النجوم والأفلاك ومصير الإنسان . وكان البابليون يعتقدون بضرورة وجود عامل خارجي يتحكم في حياة الإنسان باختلاف مراحلها . وهذا الترابط هو جزء تكاملي في نشأة تلك الحضارات على أساس القوى الخارجية الفاعلة والقوى الداخلية المنفعلة. وبهما يمكن تبرير علاقة السحر بالطب . ولما كان الطب من المعارف والعلوم القائمة على التجارب العلمية، اتجهت بعض الحضارات القديمة المتطورة الى استخدام الأعشاب والنباتات في العلاج . ويمكن أن نضرب لذلك مثلاً واضحاً هو الطب الإغريقي ، فقد بحث الأطباء الإغريق عن الأمراض التي تصيب الإنسان وحاولوا تشخيصها بعلامات تظهر على المريض من حُمّى وأورام وأوجاع وجس النبض وغيرها ، وجعلوا لكل حالة مشخصة دواءً وتركوا ذلك لاجتهاد الطبيب ربما أصاب وربما أخطأ . وكان معظم الأطباء يدونون مثل هذه الحالات وعلاجها ؛ فتكونت نتيجة لذلك ما عرف بالطب اليوناني الذي سرعان ما انتقل إلى الحضارة الإسلامية عن طريق السريان ومدارس الرُّهَا ونصيبين وجَنْديسابور وكان رافداً قوياً في إثراء المعارف الطبية الإسلامية استفادت منه في التشخيص والعلاج وأضافت إليه الكثير مما توصل إليه الأطباء المسلمون حتى صار لديهم منهج خاص وأسلوب مبتكر في

معالجة أمراض مختلفة ، وربما الكشف عن أمراض اخرى لم ترد في المدونات الطبية القديمة . والباحث في تاريخ الطب العربي فيما بعد القرن الثاني الهجري يجد مدرسة للطب متطورة جداً قياساً بالطب الإغريقي، وهي محصلة متوقعة ونتيجة لا تحتاج إلى جدل كثير بحكم قانون التطور الحضاري؛ فنجد فضلاً عن المعارف الإغريقية القديمة والتداوي بالأعشاب محاولات طموحة لوضع قوانين عامة في التشخيص والعلاج ، ودخل علم التشريع ميدان الطب ليثبت الأطباء المسلمون مدى اتجاه العلوم الطبية صوب التجربة وقوانين الأسباب والمسببات. وكان الكشف عن الدورة الدموية إيذاناً بفتح جديد في تشخيص كثير من الأمراض، وربما توصلوا الى معرفة بعض أمراض القلب والشرايين وارتفاع الضغط. ولم يقتصر العلاج على الأعشاب والنباتات بل حاولوا تركيز العلاج عن طريق تركيز الدواء ، فعرفت الأقراص والأشربة المركزة والمركبة.

وشهد القرن الثاني الهجري تطوراً ملموساً في المعارف الطبية والخدمات المتصلة بها. وعرفت بعض الخدمات الاجتماعية على الصعيد الرسمي، فقد ذكر عن عمر بن عبد العزيز أنه أمر بتقسيم ثلاثة دراهم على كل فقير من فقراء البصرة، وأعطى الزَّمْنى خمسين[1]. ولما ولي الوليد بن يزيد أجرى على زمنى أهل الشام وعميانهم وكساهم ، وأمر لكل إنسان منهم بخادم[2].

---

[1] تأريخ الرسل والملوك : ٥٧٠/٦ .

[2] تأريخ الرسل والملوك : ٢١٧/٧ ، ومختصر تاريخ الدول : ١١٨ .

ودرج الخلفاء على اتخاذ طبيب مخصوص بهم ، وأصبح من التقاليد أن يجتمع جمع من الأطباء في قصر الخليفة تكون الرئاسة لأحذقهم في الصنعة . وعلى سبيل المثال أرسل المنصور على جيورجيس بن جبرئيل بن بختيشوع ، وكان بجنديسابور يدير البيمارستان ، فاتخذه طبيبا مخصوصا به. وزادت أهمية جيورجيس في البلاط العباسي بعد أن أبرأ الرشيد من مرض استمر معه طويلا ولم يتمكن الأطباء من معالجته . وبعد موت جيورجيس أمر الرشيد بإحضار عيسى بن شهلاثا تلميذه واتخذ طبيبا مخصوصا به[١].

وجرت العادة على أن يمتحن الطبيب لكي يمنح إجازة العمل بالمهنة . وينبغي للطبيب أن تتوافر فيه بعض الصفات الأساسية ، منها : أن يكون "متيقظا ذكيا له قدرة على استعمال القياس يستخرج الوجوه للعلاج من تلقاء نفسه"[٢].

وخصصت رواتب للأطباء تمنح من الدولة ، وتختلف مبالغها باختلاف منزلة الطبيب العلمية ومهارته في الصنعة . وروي عن جبريل الكَحّال أحد أطباء المأمون أن وظيفته كانت في كل شهر ألف درهم[٣]. ولم يبلغ أحد من الأطباء مبلغ جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس فيما كان يصل إليه من الرزق والرسوم والصلات والهبات ، وقد ذكر

---

[١] تاريخ مختصر الدول : ١٢٤ ، ١٢٥ .

[٢] إخبار العلماء : ٩٤ .

[٣] تاريخ مختصر الدول : ١٣٨ .

القفطي[1] قائمة بالمبالغ التي وصلت جبرائيل في خدمته الرشيد والبرامكة ، فيما يأتي بيانها :

"هذا ثبت ما كان لجبرائيل من الرزق والرسوم والصلات:

ذكر أن رزقه كان برسم العامة في كل شهر من الوَرِق[2]: عشرة آلاف درهم.

وبرسم الخاصة في المحرم من كل سنة من الوَرِق:خمسون ألف درهم ، وثياب بقيمة عشرة آلاف درهم .

ولَفصْد الرشيد دفعتين في السنة مائة ألف درهم؟ ولشرب الدواء دفعتين في السنة مائة ألف درهم :

ومن أصحاب الرشيد كل سنة على ما فصّل مع ما فيه من قيمة الكسوة وثمن الطَّيب والدوابّ :

من الورق أربعمائة ألف درهم . تفصيل ذلك :

عيسى بن جعفر : خمسون ألف درهم .

زبيدة أم جعفر : خمسون ألف درهم .

العباسة : خمسون ألف درهم .

فاطمة : سبعون ألف درهم .

إبراهيم بن عثمان : ثلاثون ألف درهم .

الفضل بن الربيع : خمسون ألف درهم .

---

[1] إخبار العلماء : ٩٩ ، ١٠٠ .

[2] الوَرِق : النَّقْرة [الفضة] المضروبة . ومنهم من يقول : النقرة مضروبة كانت أو غير مضروبة . قال الفارابي الوَرِق المال من الدراهم ، ويجمع على أوراق . المصباح المنير: ٦٥٥ .

كسوة وطيب ودواب : مائة ألف درهم .

ومن غلة ضياعة: بجنديسابور والسوس والبصرة والسواد في كل سنة : ثمانمائة ألف درهم .

ومن فضل المقاطعة سبعمائة ألف درهم .

وكان يصير إليه من الوزراء والأعيان في كل سنة من الورق : ألفا ألف وأربعمائة ألف درهم .

يحيى بن خالد : ستمائة ألف درهم .

جعفر بن يحيى الوزير : ألف ألف وستمائة الف درهم .

الفضل بن يحيى : ستمائة ألف درهم .

فيكون جميع ذلك في خدمته الرشيد وهي ثلاث وعشرون سنة ولغيره من حاشيته وهي ثلاث عشرة سنة سوى الصلات الجِسام فانها لم تذكر في هذا المدرج، من الورق : ثمانية وثمانون ألف ألف درهم ، وثمانمائة ألف درهم . الخرج من ذلك في النفقات والصلات والكفالات والصدقات على ما تضمنه المدرج : من العَيْن : تسعمائة الف دينار، ومن الورق : سبعون ألف ألف وستمائة ألف درهم".

وعلى الرغم من وجود بعض المبالغات في هذه القائمة غير أنها تنهض دليلاً على ما كان يتمتع به بعض الأطباء من منزلة اجتماعية مرموقة ومن مستوىً اقتصادي كبير في الدخل والخرج إبّان القرن الثاني الهجري ولاسيما في خلافة الرشيد .

وكانت عيادة المريض في بيته من العادات الاجتماعية الشائعة . وجرى العرف على أن يجلس العُوّاد على فرش متواضعة أو على بُسطٍ إذا كان المريض شيخاً كبيراً أو رجلاً محترماً. ويعزو بعض المؤرخين هذه

العادة إلى الرشيد في عيادته لابن عمه إبراهيم بن صالح. ويصف لنا هذه العيادة قائلاً : "... وبكّر إلى دار إبراهيم فقصد الخدم بالرشيد إلى رواق فيه الكراسي والمساند والنمارق ، فاتكأ الرشيد على سيفه ووقف وقال : لا يحسن الجلوس في المصيبة بالأحّبة على أكثر من البساط ، وصارت سنة لبني العباس من ذلك اليوم ، ولم تكن السنة كذلك..."[١].

ومن التطورات الجديدة في المعارف الطبية العلاج النفسي . وقد باشر بعض الأطباء علاج مرضاهم بالموسيقى، واشتهر من بينهم الكندي، وهو وإن كان أميل إلى الفلسفة إلاّ أنه عني بالطب والموسيقى. ووصف لنا القفطي[٢] نادرة من علاجات الكندي بالموسيقى. والخبر عن تاجر له ابن مريض يئس من علاجه الأطباء حتى أشرف على الموت، فطلب من الكندي عيادة ابنه والنصح في علاجه ، فصار الى منزل التاجر "فلما رأى ابنه وأخذ مجسّه أمر بأن يحضر إليه من تلاميذه في علم الموسيقى من قد انعم الحِذْقَ بضرب العود ، وعرف الطرائق المحزنة والمزعجة والمقوية للقلوب والنفوس، فحضر إليه منهم أربعة نفر ، فأمرهم أن يديموا الضرب عند رأسه ، وأن يأخذوا في طريقة أوقفهم عليها ، وأراهم مواقع النغم بها من أصابعهم على الدساتين ونقلها؛ فلم يزالوا يضربون في تلك الطريقة ، والكندي آخذٌ مجسَّ الغلام ، وهو في خلال ذلك يمتد نفسه ويقوى نبضه ويراجع إليه نفسه شيئاً بعد شيء إلى أن تحرك ، ثم جلس وتكلم وأولئك يضربون في تلك الطريقة دائماً لا يفترون".

---

[١] إخبار العلماء : ١٤٦ .
[٢] إخبار العلماء : ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

واشتهر جمع كبير من الأطباء في القرن الثاني الهجري . وكان معظمهم من أطباء البلاط العباسي إذْ زادت عناية الخلفاء باتخاذهم ، وان كنا لا نعدم وجود أطباء مشهورين في البلاط الأموي ، منهم ماسرجويه او ماسرجيس الطبيب البصري . ذكر القفطي[١] أنه عاصر عمر بن عبد العزيز وتولى لعمر ترجمة كتاب أهرن القس في الطب، وهو "كُنَاش فاضل من أفضل الكنانيش[٢] القديمة". وذهب ابن جلجل الأندلسي في كتابه طبقات الأطباء الى أن ماسرجويه كان في أيام مروان في الدولة المروانية ، وقام بتفسير الكتاب المذكور الى العربية في خلافته ووجده عمر بن عبد العزيز بعد ذلك في خزائن الكتب "وأمر بإخراجه ووضعه في مصلاه واستخار الله في إخراجه الى المسلمين لينفع به ، فلما تّم له في ذلك أربعون يوماً أخرجه الى الناس وبثه في أيديهم"[٣].

ولا يعقل أن يكون ماسرجويه الذي ذكره ابن جلجل قد عّمر إلى خلافة عمر ، وربما كان طبيباً آخر غير الذي ذكره القفطي ، ويقوي هذا الرأي أنه ذكر اسمين لشخص واحد : ماسرجويه وماسرجيس . وربما كان ماسرجويه اسماً لطبيبين عرف أحدهما في أيام مروان ، وعرف الآخر في أيام عمر بن عبد العزيز.

---

[١] إخبار العلماء : ٢١٣ .

[٢] يظهر أن مادة (كَنش) ترجع في أصلها الى الآرامية ؛ والكُنَاش وجمعه الكنانيش: كتاب تدون فيه ملاحظات وتجارب متعلقة بالعلوم الطبية ، واستعملت الكلمة في العربية أيضاً بمعنى الكتاب الجامع لأصول علم من العلوم ولكن غلب استعمالها على كتب الطب والكُناشة عند المغاربة : مجموعة تدرج فيها قواعد وفوائد . انظر Dozy, Supplement Aux Dictionnaires Arabes (مادة: كنش 502-2) .

[٣] إخبار العلماء : ٢١٣ .

ونسب إلى ماسرجويه من الكنّب : كناش ، وكتاب في الغذاء ، وكتاب في العين[١].

ومن أطباء صدر الدولة العباسية يوحنا بن سرافيون . وجميع ما ألفه سرياني ، وقد نقل كتاباه في الطب إلى العربي وهما كتاب الكناش الكبير: اثنتا عشرة مقالة ، وكتاب الكناش الصغير : سبع مقالات[٢].

وفي خلافة المهدي اشتهر في الطب أبو قريش وهو المعروف بعيسى الصيدلاني ، واختص بالمهدي وصار طبيباً له. واكتسب مهارته بالصنعة لا بالتدارس والمذاكرة ، لذلك لم يعد في جملة الأطباء، ولم يترك مؤلفاً[٣].

ومن أطباء المنصور جورجيوس بن جبرئيل، وله من الكتب: كناشه المشهور. نقله حنين بن اسحق من السرياني الى العربي[٤].

ومن أطباء الرشيد عيسى بن الحكم ، وهو المشهور بمسيح "صاحب الكناش الكبير الذي يعرف به وينسب إليه". وله من الكتب : كتاب منافع الحيوان[٥].

وكان يوحنا بن ماسويه من أشهر الأطباء في العصر العباسي الأول . وقد خدم الرشيد والأمين والمأمون ، وبقي إلى أيام المتوكل . وبلغت ثقة الخلفاء به وبصنعته حداً أنهم كانوا "لا يتناولون شيئاً من

---

[١] عيون الأنباء : ١٠٥/٢ .

[٢] إخبار العلماء : ٢٤٨ .

[٣] مختصر تاريخ الدول : ١٢٧ .

[٤] عيون الأنباء : ٤١/٢ .

[٥] عيون الأنباء : ٣٠/٢ .

أطعمتهم إلاّ بحضرته. وكان يقف على رؤوسهم ومعه البراني[1] بالجوارشات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء . وفي الصيف بالأشربة الباردة الطابخة المقوية والمعاجين"[2].

وكان يوحنا بن ماسويه كثير التأليف. وترك كتباً ورسائل في مختلف المعارف الطبية وذكر له ابن أبي أصيبعة[3] ثبتاً بمؤلفاته ، نذكر منه ما يأتي :

١. كتاب البرهان : ثلاثون باباً .
٢. كتاب البصيرة .
٣. كتاب الكمال والتمام .
٤. كتاب الحمّيات .
٥. كتاب في الأغذية .
٦. كتاب في الأشربة .
٧. كتاب المنجح ، في الصفات والعلاجات .
٨. كتاب في الفَصْد والحجامة .
٩. كتاب في الجذام ، "لم يسبقه أحد الى مثله" .
١٠. كتاب الجوهر .
١١. كتاب الرجحان .
١٢. كتاب في تركيب الأدوية المسهلة وإصلاحها وخاصِّيَّة كل دواء منها ومنفعته .

---

[1] البَراني : جَمْعُ ، ومفرده الَبْرنّية ، وهي إناءٌ من خَزَفٍ . انظر : مختار الصحاح ص٥٠.

[2] إخبار العلماء : ٢٤٩ .

[3] عيون الأنباء : ١٣٦/٢ ، ١٣٧ .

١٣. كتاب دفع مضار الأغذية .
١٤. كتاب السموم وعلاجها .
١٥. كتاب في الصراع وعلله وأوجاعه وجميع أدويته والسدد والعلل المولدة لكل نوع منه وجميع علاجه . ألفه لعبد الله بن طاهر .
١٦. كتاب لِمَ امتنع الأطباء من علاج الحوامل في بعض شهور حملهن .
١٧. كتاب مجسّه العروق .
١٨. كتاب المرّة السوداء .
١٩. كتاب الجنين .
٢٠. كتاب المعدة .
٢١. كتاب التشريح .
٢٢. كتاب تركيب خَلْق الإنسان وأجزائه وعدد أعضائه ومفاصله وعظامه وعروقه ومعرفة أسباب الأوجاع .

واستعملت كلمة (الكِحالة) للدلالة على طب العيون ، والذي يباشر هذه الصنعة يسمى (الكحّال). وكان للكحّالين شأن لدى الخلفاء . واشتهر من بينهم جبرائيل ، وكان كّحالاً اختصّ بخدمة المأمون . وقرر له في كل شهر ألف درهم. وعرف بخفة يده في الصنعة ، وكان أول من يدخل إلى المأمون في كل يوم عند تسليمه من صلاة الغداة "ويغسل أجفانه ويكحل عينيه، وإذا انتبه من قَيْلُولته[١] فعل مثل ذلك"[٢].

---

[١] قالَ يَقيل قَيْلاً وقَيْلُولةً : نام نصف النهار. والقائلة : وقت القيلولة ، وقد تطلق على القيلولة. المصباح ٥٢١ .

[٢] إخبار العلماء : ١٠٦ .

ومن مشاهير الأطباء في القرن الثاني الهجري سهل بن سابور ، ويعرف بالكَوسَج. "كان بالأهواز وفي لسانه لُكْنه. وتقدم بالطب في أيام المأمون"[١].

ومنهم حنين بن إسحاق. وله مشاركة في التأليف. ومنهجه في الطب منهج الإغريق. ووصفت كتبه بأنها "نافعة بارعة مثقفة. وعمد إلى كتب جالينوس فاحتدى حذو الإسكندرانيين ، وصنفها على سبيل المسألة والجواب وأحسن في ذلك". وله من الكتب : كتاب في المنطق، أحسن فيه التقسيم، وألف في الأغذية كتاباً عجيباً ، وله كتاب في تدبير الناقهين، وفي الأدوية المسهلة والأغذية على تدبير الصحة لم يسبقه اليه أحد ، وله كناش اختصره من كتاب بولس[٢].

ومنهم : جورجيس بن بختيشوع . وله من الكتب : كتاب الكناش[٣]. وبختيشوع بن جورجس . ومعنى كلمة (بختيشوع) في السريانية : عبد المسيح[٤]. وكان بختيشوع هذا في جنديسابور أيام الرشيد ، فأرسل البريد لطلبه "ولما كان بعد أيام ورد ودخل على الرشيد، فأكرمه وخلع عليه خلعة سنية ، ووهب له مالاً وافراً ، وجعله رئيس الأطباء"[٥]. وله من الكتب : كناش مختصر ، وكتاب التذكرة ألفه لابنه جبرائيل[٦].

---

[١] تاريخ مختصر الدول : ١٣٨ .

[٢] إخبار العلماء : ١١٨ .

[٣] إخبار العلماء : ١٠٩ .

[٤] عيون الأنباء : ٤١/٢ .

[٥] تاريخ مختصر الدول : ١٢٠ .

[٦] عيون الأنباء : ٤٣/٢ .

الفصل الثاني عشر
الموسيقى والفلك

الموسيقى والغناء

عرف الغناء في الجزيرة العربية قديماً. ويصحب الغناء عادة بعض الآلات الموسيقية التي تختلف باختلاف نوع الغناء وتطوره. وارتبط الغناء في الجزيرة العربية بالشعر، وعرفت بعض الألحان البسيطة التي كانت تؤدى بصحبة القوافل مستلهمة نقراتها الموسيقية البدائية من مشي الجمال دون اللجوء إلى استعمال آلات موسيقية. وأطلق على هذا النمط من اللحن اسم (الحُدَاء) وهو يرتبط في الغالب بالرجز .

وتطورت الألحان بعض الشيء في البيئات المستقرة أو شبه المستقرة كمكة والطائف وأطرافهما . وكان لانتشار الحانات ودور القيان في الجاهلية أثر ملموس في تطوير الغناء واستخدام الآلات الموسيقية وبخاصة الوترية منها والمستعملة من الرق . وكانت معظم هذه الدور لعناصر من اليهود والنصارى وجلب هؤلاء قياناً ومغنيات من بيئات حضرية كالعراق والشام أو بيئات أجنبية كرقيق الروم والأحباش لأغراض الكسب والتجارة واللهو .

وشهدت الفترة الإسلامية في دولة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والراشدين عزوفاً عن الغناء والألحان؛ فقد حرم الإسلام الخمر والملاهي وقضى على الحانات ، وعلى النقيض من ذلك كان الترف المادي والتغير الاجتماعي الذي حدث في العصر الأموي وصدر الدولة العباسية إيذاناً بعهد جديد للفنون الإيقاعية والنغمية . ولم تعد الحانات والخمارات والمواخير ودور الرقيق والقيان المصدر الوحيد للغناء والرقص ، بل تحولت بعض الطبقات الاجتماعية إلى تذوق الموسيقى والغناء الرقيق ، ومال الشعراء إلى مشاركة المغنين بما هيئوا لهم من أوزان قصار وكلمات

عذبة خالية من وحشية الألفاظ البدوية. وصار الغناء فناً بعد ما كان لهواً ، وأصبحت له قواعد وألحان وآلات ومدرسون ودارسون ونقاد ومؤلفون. وعملت الحضارة على صقله وتشذيبه وهيأته لمختلف المستويات الاجتماعية والثقافية. ومن الغريب أن تنتشر مراكزه في مكة والمدينة إبّان الحكم الأموي ، ثم تنتقل بعد ذلك في العصر العباسي إلى بغداد، وبانتقاله إليها بدأ التدوين والتأليف في الموسيقى وأصبحت علماً له مصادره وقواعده ومصطلحاته وشارك فيه مختلف العلماء والفلاسفة وأغلبهم لا يتحرج من ذلك، والمتحرجون فرقوا بين ما هو علم يدون ويدرس وما هو عمل يباشر بالضرب والعزف على آلات الغناء باستثناء الفقهاء فان لهم موقفاً آخر ورأياً مغايراً بين التشديد المطلق والإباحة بشروط ذكروها في كتبهم .

ودخل الغناء بلاط الخلفاء وشغف به أغلبهم[1] وعزف عنه قليلون لانشغالهم بأمور الدولة . وكان هشام بن عبد الملك لا يميز بين الآلات الموسيقية وليست له معرفة بالغناء والألحان ولا شغف له بهما .

ويروى أنه أُتي برجل عنده قيان وخمر وبَرْبَط. "فقال: اكسروا الطَّنْبُور على رأسه. فبكى الرجل لمّا ضربه. فقيل:عليك بالصبر. فقال: أتراني أبكي للضرب ؛ بل إنما أبكي لاحتقاره البربطَ إذْ سماه طنبوراً"[2].

وكان أبو العباس السفاح يحب الغناء والسماع ولكن على استحياء، واتخذ ستراً يجلس من ورائه "ويصيح بالمطرب له من المغنين: أحسنت

---

[1] انظر : تأريخ الرسل والملوك ٢٢٥/٧ ومروج الذهب : ٢٢٥/٣ ، ٢٢٦ والفخري : ١٣١، ١٣٤ .

[2] تاريخ مختصر الدول : ١١٦ .

والله ، أَعِدْ هذا الصوت ... وكان في أول أيامه يظهر لندمائه، ثم احتجب عنهم، وذلك لسنةٍ خلت من ملكه"[١].

أما المنصور فقد عزف عن الغناء والطرب، وانصرف إلى شؤون الدولة والسياسة وروي عنه أنه "لم يُر في داره لهو ولا شيء من اللعب والعبث. قال حماد التركي [أحد وصفائه] : كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جلبة فقال : انظر ما هذا. فذهبت، فإذا خادم له قد جلس وحوله الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور، وهن يضحكن، فأخبرته فقال : وأيّ شيء الطنبور؟ فوصفته له. فقال ما يدريك أنت ما الطنبور. قلت: رأيته ؛ فقام ومشى إليهنّ ، فلما رأينه تفرقن، فأمر بالخادم فضُرِبَ رأسهُ بالطنبور، حتى تكسر الطنبور وأخرجه فباعه"[٢].

وكان المهدي كأبيه المنصور غير معني بالملاهي، بخلاف الهادي، فقد قال عبد الله بن مالك، وكان يتولى شرطة المهدي : "كان المهدي يأمرني بضرب ندماء الهادي ومغنيه وحبسهم صيانة له عنهم"[٣]. وذكر عن الهادي أنه كان "يشتهي من الغناء الوسط الذي يقل ترجيعه[٤] ولا يبلغ أن يستخفّ به جداً..." [٥].

---

[١] مروج الذهب : ٢٧٩/٣ .

[٢] تاريخ مختصر الدول : ١٢٣ .

[٣] الفخري : ١٨٩ .

[٤] الترجيع : تكرير النغم والمعاودة فيما مضى . ترديد الصوت في الغناء والقراءة ونحوهما. قاموس الموسيقى العربية : ١٥٧ .

[٥] تأريخ الرسل والملوك : ٢٢٧/٨ .

وبلغ فن الموسيقى والغناء أوجه في عصر الرشيد – وهو عصر ازدهار ورخاء – ونسب إلى الرشيد نقلاً عن الصولي أنه "أول من جعل للمغنين مراتب وطبقات"[١].

وعرف في القرن الثاني الهجري مغنون ومطربون وموسيقيون وضعوا رسائل وكتباً في هذا الفن . منهم يونس الكاتب ، المعروف بيونس المغني. وهو يونس بن سليمان ويكنى أبا سليمان أدرك الدولة العباسية. وله كتب مشهورة في الأغاني والمغنيين . ويقال : إن إبراهيم الموصلي أخذ عنه. ومن كتبه: كتاب مجرد يونس ، وكتاب القيان ، وكتاب النغم[٢].

ويعد إسحاق بن إبراهيم الموصلي المولد سنة ١٥٠هـ والمتوفى سنة ٢٣٥هـ من أشهر المؤلفين في الموسيقى في تلك الحقبة. وهو راوية للشعر والمآثر. لقي فصحاء الأعراب من الرجال والنساء "وكانوا إذا قدموا حضرة السلطان قصدوه ونزلوا عليه؛ وكان مع ذلك شاعراً حاذقاً بصناعة الغناء مفتناً في علوم كثيرة.." [٣]. وذكر له ابن النديم[٤] من الكتب في الغناء والألحان: كتاب أغانيه التي غنى بها، وكتاب أغاني معبد، وكتاب أخبار المغنين المكيين. وكتاب أخبار طويس ، وكتاب أخبار سعيد بن مسجح،

---

[١] تاريخ الخلفاء : ٢٩٥ .

[٢] الفهرست : ١٦٢ .

[٣] الفهرست : ١٥٨ .

[٤] الفهرست : ١٥٨ .

وكتاب الرقص والزفن[١]، وكتاب النغم والإيقاع ، وكتاب قيان الحجاز، وكتاب القيان، وكتاب أخبار معبد وابن سريج وأغانيهما ، وكتاب أخبار الغريض. وعرف عن إسحاق الموصلي رهافة حسه وتذوقه للغناء والألحان. وسُئل عن المجيد من المغنيين ، فقال: "من لَطْفَ في اختلاسهِ[٢]، وتمكن من أنفاسه، وتفرّغ في أجناسهِ[٣]. يكاد يعرف ضمائر مجالسيهِ، وشهوات معاشريه. يَقْرَعُ مَسْمَعَ كَلّ واحدٍ منهم بالنحو الذي يوافق هواه، ويطابق معناه"[٤].

العلوم الفلكية

تطورت المعارف الفلكية في القرن الثاني الهجري إلى علم له أصوله ومنهجه ومصطلحاته. وشارك في التأليف فيها جماعة من الفضلاء والعلماء . والمعارف الفلكية تنقسم إلى قسمين، أحدهما: علم التنجيم وهو يربط مصير الإنسان والطبيعة بحركات النجوم والكواكب، ويعرف هذا العلم عادة لدى المنجمين بعلم أحكام النجوم، وقيل في تعريفه: "هو علم يتعرف منه الاستدلال بالتشكلات الفلكية من أوضاعها، وهي أوضاع الأفلاك

---

[١] الزَّفْنُ : ضرب من الرقص "زَفَنَ زَفْناً من باب ضربَ: رقص "المصباح المنير ٢٥ . ومنه زَفْن الحبشة وهو "نوع من المشي بتشبيب يفعل عند اللقاء بالحرب" قاموس الموسيقى العربية : ١٨٣ .

[٢] الاختلاس : أن تؤخذ النغمة قبل وصولها والفراغ من الأولى . قاموس الموسيقى العربية : ١٣٦ .

[٣] الأجناس : أجناس الغناء . ومنه "الطنيني واللوني والتأليفي" قاموس الموسيقى العربية : ١٣٥ .

[٤] الحصري : زهر الآداب ٣/٦٤٧ (تحقيق زكي مبارك . القاهرة ١٩٧٢) .

والكواكب من المقابلة والمقارنة والتثليث والتسديس والتربيع على الحوادث الواقعة في عالم الكون والفساد من أحوال الجو والمعادن والنبات والحيوان"[١].

والآخر: علم الفلك، بما فيه من حركات النجوم والكواكب في السماء ورصدها وتقسيمها على فصول السنة ومعرفة الأيام والشهور ومنازل القمر والأنواء والزيجات وعمل الآلات الرصدية وكيفية الإرصاد وحساب النجوم ... الخ مما له صلة بالمنفعة العملية للمعارف الفلكية. وغرضه "معرفة الساعات وفصول السنة وسَمْت القبلة وأوقات الصلاة"[٢].

وكان أبو جعفر المنصور من أوائل الخلفاء الذين عنوا بالعلوم والفلسفة والفلك. "وكان مع براعته في الفقه كلفاً في علم الفلسفة وخاصة في علم النجوم"[٣]. ويعد أول خليفة قرب المنجمين إليه وعمل بأحكام النجوم[٤]. وظهر في عصره محمد بن إبراهيم الفزاري الذي وصف بأنه أول من عني في الملة الإسلامية وفي أوائل الدولة العباسية بسير الكواكب ورصدها. وفي سنة ١٥٦هـ قدم على المنصور رجل من الهند قيّم بالحساب المعروف بالسند هند[٥] في حركات النجوم ومعه كتاب في هذا الفن يحتوي

---

[١] طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ٣٢١/١ .

[٢] مفتاح السعادة : ٣١٢/١ .

[٣] تاريخ مختصر الدول : ١٣٦ .

[٤] تاريخ الخلفاء : ٢٦٩ ، وأخبار الدول : ١٤٧ .

[٥] السند هند – كما ذكر القفطي – : كلمة هندية معناها (الدهر الداهر). وتطلق اصطلاحاً على حساب في حركات النجوم قال القفطي : "كان أهل ذلك الزمن أكثر من يعملون به الى أيام الخليفة المأمون فاختصره له أبو جعفر محمد بن

على عدة أبواب؛ فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى العربية وأن يؤلف منه كتاب تتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزاري وعمل منه كتابا يسميه المنجمون السند الهند الكبير"[١].

وكان نوبخت المنجم يصحب المنصور، وكان فاضلاً حاذقاً خبيراً باقتران الكواكب وحوادثها ، ثم لما مات اتخذ المنصور من ولده – ويكنى أبا سهل – منّجماً له[٢].

ومن المنجمين في أيام المنصور ما شاء الله ، وكان يهودياً ، وقد عمر إلى أيام المأمون ووصف بأنه "أوحد زمانه له حظٌّ قوي في سهم الغيب"[٣].

وفي عهد المهدي زاد نفوذ المنجمين في البلاط . واستحدث منصب جديد هو رئيس منجمي الخليفة. وأسند المهدي هذه الوظيفة الى توفيل بن توما[٤]، وهو منجم نصراني من الرُّها "وكان خبيراً بحوادث النجوم وله في أحكام النجوم إصابات عجيبة وقد ناهز تسعين سنة من عمره"[٥].

موسى الخوارزمي وعمل منه زيجه المشهور ببلاد الإسلام" . إخبار العلماء : ١٧٧ ، ١٧٨ .

[١] إخبار العلماء : ١٧٧ .

[٢] تاريخ مختصر الدول : ١٢٥ .

[٣] تاريخ مختصر الدول : ١٣٦ .

[٤] تاريخ مختصر الدول : ١٢٧ .

[٥] إخبار العلماء : ٧٧ .

وزادت عناية المأمون بالعلوم الفلكية. ويبدو أنه قد تدارس علم النجوم وأحكمه حتى نسب إليه زِيج سمي الزيج المأموني[١]. وعني بعض وزراء المأمون بالأمور الفلكية، ووصف الفضل بن سهل وزير المأمون بأنه كان "خبيراً بعلم النجوم"[٢].

وأنشأ المأمون مراصد في الشمّاسية ببغداد وجبل قاسيون بدمشق بين سنتي ٢١٥هـ و ٢١٧هـ وأوكل أمر هذه المراصد إلى جماعة من العلماء ، منهم يحيى بن أبي منصور ، وأمرهم بالرصد وإصلاح آلاته. وبطل العمل بالمراصد المذكورة آنفاً بموت المأمون في شهور سنة ٢١٨هـ[٣].

ومن المنجمين الذين باشروا العمل بالشمّاسية سند بن علي . وهو منجم فاضل خبير بتسيير النجوم وعمل آلات الأرصاد والأُصْطُرلاب[٤].

---

[١] مآثر الإنافة : ٢٠٩/١ . والزيج : جداول مبنية على علم يعرف بعلم الزيجات والتقاويم . "وهو علم يتعرف منه مقادير حركات الكواكب – ولاسيما السيارة السبعة – وتقويم حركاتها وإخراج الطوالع وغير ذلك منتزعاً من الأصول الكلية . ومنفعته : معرفة موضع كل واحد من الكواكب ولاسيما السبعة بالنسبة الى فلكها والى فلك البروج وانتقالاتها ورجوعها واستقامتها وتشريفها وتغريبها وظهورها وخفائها في كل زمان ومكان لتعرف بمعرفة هذه الأمور الاتصالات بين الكواكب من المقارنة والمقابلة والتربيع والتثليث والتسديس ويعرف كسوف الشمس وخسوف القمر وما يجري هذا المجرى" مفتاح السعادة: ٣٥٣/١ .

[٢] الفخري : ٢٢١ .

[٣] إخبار العلماء : ٢٣٤ ، وتاريخ مختصر الدول : ١٣٧ .

[٤] الأُسْطُرْلاب – بالسين – وتكتب الاصطرلاب بالصاد أيضاً : آلة قديمة لقياس ارتفاعات الأجرام السماوية . تتألف من قرص خشبي أو معدني مدرج المحيط

معلق في وضع رأسي بحلقة وفي مركزه مؤشر متحرك يسمى العضادة . الموسوعة العربية الميسرة – لمجموعة من الأساتذة ص١٤٨ . وقال حاجي خليفة في تعريف علم الاصطرلاب "علم يبحث فيه عن كيفية استعمال آلة معهودة يتوصل بها إلى معرفة كثير من الأمور النجومية على أسهل طريق وأقرب مأخذ مبين في كتبها ، كارتفاع الشمس ومعرفة المطالع وسمت القبلة وعرض البلاد وغير ذلك" كشف الظنون ١٠٦/١ . وأغلب الظن أن الكلمة من أصل يوناني كما ذهب إلى ذلك الخوارزمي . قال "الاصطرلاب معناه مقياس النجوم وهو باليونانية اصطرلابون . واصطر : هو النجم ، ولابون : هو المرآة. ومن ذلك قيل لعلم النجوم : اصطرنوميا" مفاتيح العلوم : ١٣٤ . ونسب اختراعه إلى هيباخوس أو أبولونيوس . الموسوعة العربية : ١٤٨ . وذهب بعض العلماء إلى أن الكلمة من أصل فارسي وهي معرب (ستاره ياب) أي مرآة النجوم . الحسيني الموصلي : سوانح القريحة في شرح الصفيحة (ضمن كتاب دراسات في التراث الجغرافي العربي ص١١٣) . والرأي الأول هو الأقوى لأن الاسطرلاب من عمل اليونان ، وأطلقوا على علم النجوم كلمة اصطرنوميا . وهو بيان لاشتقاق الكلمة في أصل لغتهم .

ومن أوائل الذين صنعوا الاسطرلاب وكتبوا عنه الفزاري وسند بن علي . ومنذ ذلك الوقت أصبح الاسطرلاب إحدى الآلات الأساسية عند العرب فتفننوا في صناعته وتحويره كالاسطرلاب المسطح ، وذات الحلق ، والآلة الشاملة ، =والصفيحة الزرقلية وغيرها . ويتوقف العمل به على ما اذا كان يمثل مسقط الكرة السماوية على سطح مستوى أو مسقط هذا المسقط على خط مستقيم او استخدام الكرة نفسها دون إسقاط . وقد جرى العرف عند صناعة الاسطرلاب على تدريج ظل التمام في ظهره على ربع المحيط ، أما الربع المقابل له فيسجل عليه الارتفاع بالإضافة إلى بيانات أخرى فلكية مثل خرائط للنجوم والبروج وغيرها . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ص١٤٨ .

"وكان واحد الفضلاء في وقته . اتصل بخدمة المأمون وندبه الى إصلاح آلات الرصد وأن يرصد بالشماسية ببغداد ففعل ذلك وامتحن مواضع الكواكب ولم يتم الرصد لأجل موت المأمون" ونسب اليه زيج ذكر القفطي

ويتألف الأُسْطُرْلاب من أجزاء ، منها "العضادة: هي التي على ظهر الأُسْطُرْلاب، ولها رأسان محددان ، أحد رأسيها يقطع درجة الارتفاع التسعين على ظهر الاسطرلاب ، وبالرأس الآخر يعرف الظل إذا كان معمولاً على الأُسْطُرْلاب. الدفتان : هما الشظيتان المركبتان على العضادة في كل واحدة منهما ثقب صغير ليرصد به الشمس عند أخذ الارتفاع . الحجرة : هي الحلقة التي على وجه الأُسْطُرْلاب المقسومة بثلاثمائة وستين جزءاً وهي محيطة بالصفائح التي للأقاليم . الكرسي : هو الزيادة التي في الحلقة المقسومة التي في الحجرة . العروة : هي التي فيها الحلقة التي تعلق بها الأُسْطُرْلاب عند القياس . العنكبوت : هي الصفيحة الثخينة المخرقة التي فيها منطقة البروج والكواكب الثابتة . القطب : هو الذي في مركز الصفائح والعنكبوت . الفلس : هو الذي فيه القطب أيضاً . الفَرس : هو الذي في القطب وعلى الصفائح" . انظر : الصوفي ، كتاب العمل بالاسطرلاب : ١ ، ٢ ، ٣ . وللاسطرلاب فوائد جمة في قياس النجوم والارتفاعات ومعرفة سمت القبلة وغيرها . ولكل جزء من أجزائه عمل مخصوص به "... كالعضادة للارتفاع ، والشبكة لمعرفة الطالع وما مضى من النهار أو الليل وما بقي منهما ؛ فيحكي ذلك البعض بحركته الأوضاع أي الهيئات الفلكية فيستعلم بها أي بتلك الأوضاع بعض الأحوال العلوية كالطالع والغارب ووسط السماء ووتد الأرض والساعات المستوية المعتدلة والمعوجة الزمانية ... ويستنتج منها بعض الأمور السفلية كمعرفة ارتفاع المرتفعات وعروض الأنهار وأعماق الآبار وإجراء القنوات ومعرفة القبلة وأوقات الصلوات" سوانح القريحة في شرح الصفيحة : ١١١ ، ١١٢ .

أنه زيج مشهور "يعمل به المنجمون الى زمننا هذا"[١] ومنهم : العباس بن سعيد الجوهري المنجم. خبير بصناعة التسيير وحساب الفلك قيم بعمل آلات الأرصاد. "صحب المأمون وندبه إلى مباشرة الرصد في جملة الجماعة المتولين لذلك بالشمّاسية ببغداد. وحقق مواضع بعض الكواكب السيارة والنيّرين[٢] وعمل على ذلك زيجاً مشهوراً مذكوراً عند أهل هذا الشأن فهو ورفقته سند بن علي وخالد بن عبد الملك المروالروذي ويحيى بن أبي منصور أول من رصد في الملة الإسلامية ثم تبعهم الناس بعد ذلك"[٣].

ومن المنجمين في أيام المأمون حبش الحاسب المروالروذي الأصل البغدادي الدار. وله ثلاثة أزياج أولها: المؤلف على مذهب السندهند. والثاني: الممتحن وهو أشهرها. ألفه بعد أن رجع إلى معاناة الرصد وأوجبه الامتحان في زمانه. والثالث: الزيج الصغير المعروف بالشاة[٤].

وذكر القفطي أن زيجه المؤلف على مذهب السند هند خالف فيه الفزاري والخوارزمي في عامة الأعمال "واستعماله لحركة إقبال فلك البروج وإدباره على رأي ثاؤن الإسكندراني ليصح له بها موضع الكواكب في

---

[١] إخبار العلماء : ١٤٠ ، ١٤١ .

[٢] النيّرانِ : الشمس والقمر . المحبي (محمد أمين بن فضل الله) : جنى الجنتين في تمييز نوعي المثنين ص١١٢ – نشر دار الكتب العلمية. بيروت بلا تاريخ . والنيّر الأصغر هو القمر والنيّر الأكبر هو الشمس . انظر: شريف يحيى الأمين: معجم الألفاظ المثناة ص٤٩٧ (بيروت . دار العلم للملايين ١٩٨٢) .

[٣] إخبار العلماء : ١٤٨ .

[٤] تاريخ مختصر الدول : ١٣٦ .

الطول"[1]. وبلغ الحاسب من عمره نحو مائة سنة وأدرك المعتصم. وترك كتباً ورسائل في علم الاصطرلاب والزيجات وغيرها من المعارف الفلكية. منها: كتاب الزيج الدمشقي، وكتاب الزيج المأموني، وكتاب الأبعاد والأجرام، وكتاب عمل الاصطرلاب ، وكتاب الرخائم والمقاييس ، وكتاب الدوائر المتماسة وكيفية الاتصال الى عمل السطوح المتوسطة والقائمة والمائلة والمنحرفة.

ومن منجمي المأمون أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني . صاحب المدخل الى علم هيئة الأفلاك "وهو كتاب لطيف الجِرم عظيم الفائدة مضمن ثلاثين باباً احتوت على جوامع كتاب بطليموس بأعذب لفظ وأبين عبارة"[2] ومنهم محمد بن موسى الخوارزمي "وكان منقطعاً الى خزانة كتب الحكمة للمأمون . وهو من أصحاب علم الهيئة. وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجة الأول والثاني ويعرف بالسند هند"[3].

ومن العلماء المشاركين في علم الفلك والنجوم في القرن الثاني الهجري جابر بن حيان الكوفي. وكان تلميذاً للإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) واشتهر بالكيمياء وله فيها تآليف معروفة وشرح رسائل الإمام العلمية . أما في الفلك فقد ذكر محمد بن سعيد السرقسطي المعروف بابن المشاط الأصطرلابي الأندلسي أنه رأى لجابر بن حيان

---

[1] إخبار العلماء : ١١٧ .

[2] إخبار العلماء : ٥٦ ، وانظر : تاريخ مختصر الدول ١٣٦ .

[3] إخبار العلماء : ١٨٧ ، ١٨٨ ، وتاريخ مختصر الدول ١٣٦ .

بمدينة مصر "تأليفاً في عمل الاصطرلاب يتضمن ألف مسألة لا نظير له"[١].

ومنهم ثابت بن قُرّة الحّراني ونسب إليه المسعودي كتاباً "جمع فيه ما ذكره جالينوس في سائر كتبه من أفعال النّيرينِ وهما الشمس والقمر في هذا العالم أفادناه ابنه سنان بن ثابت"[٢].

---

[١] إخبار العلماء : ١١١ .

[٢] التنبيه والإشراف : ٦٣ .

الفصل الثالث عشر

(طرق المواصلات - مظاهر من الحياة الاجتماعية والمادية)

طرق المواصلات والملاحة النهرية

كانت العناية بطرق المواصلات في القرن الثاني الهجري منصبة على الطرق المؤدية إلى عاصمة الدولة، والطرق المؤدية إلى مكة والمدينة لتوثيق صلة الولايات بالعاصمة وإيجاد طرق أفضل لحجاج بيت الله الحرام والمدينة المنورة ووصول أكبر مجموعة منهم في موسم الحج وأداء المناسك علماً بأن هذه الفريضة شملت الشعوب الإسلامية بمختلف قومياتها وأقطارها القاصية والدانية. وابتنى بعض الخلفاء والأمراء منازل على طريق الحج لتوفير الماء والطعام والاستراحة للحجاج . وذكر عن الوليد بن يزيد أيام كان أميراً أنه أمر بإطعام من صدر عن الحج بمنزل يقال له زيزاء ثلاثة أيام وبعلف دوابهم[١]. وكان أبو مسلم – في مطلع العصر العباسي – يأمر بإصلاح الآبار والطرق[٢]. ويبدو أن الطرق المؤدية الى الحجاز من العراق كانت في وضع جيد في خلافة المهدي وروي أنه في سنة ١٦٠هـ حُمل محمد بن سليمان الثلج للمهدي حتى وافى به مكة "فكان المهدي أول من حُمل له الثلج الى مكة من الخلفاء"[٣]. قال الذهبي "لم يتهيأ ذلك لملك قط"[٤]. وفي سنة ١٦١هـ أمر المهدي ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسية إلى زُبالة، وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس وترك منازل أبي جعفر التي

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ٦/٢١٧ .

[٢] تاريخ مختصر الدول : ١٢٠ .

[٣] تأريخ الرسل والملوك٠ : ٨/١٣٤ .

[٤] تاريخ الخلفاء : ٢٧٣ .

كان بناها على حالها[١]. وذكر الطبري[٢] أنه في السنة نفسها أمر المهدي باتخاذ المصانع[٣] في كل منهل ، وبتجديد الأميال[٤] والبرك، وحفر الركايا[٥] مع المصانع. وولى ذلك يقطين بن موسى ، فلم يزل ذلك إليه الى سنة ١٧١هـ .

أما السفن والملاحة النهرية فالأمر يتعلق بتأريخ الأسطول في الدولة. ومن المعروف أن العرب والمسلمين رغبوا عن ركوب البحر إلى عهد عمر بن الخطاب وذكر المؤرخون روايات عن عمرو بن العاص تحرض عمر بن الخطاب على منع المسلمين من خوض البحار. وقد تعرض عرفجة بن هرثمة الى انتقاد شديد من عمر لما بلغه غزوه في هجر وكان قد أرسله لغزو عمان. إلا أن الأمور تغيرت في العصر الأموي وأذن معاوية بركوب البحر والغزو على أعواده، وأوعز عبد الملك بن مروان إلى حسان بن النعمان عامله على إفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء السفن وما تحتاجه من آلات وأدوات. وهي أول أشارة إلى قيام صناعة

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ١٣٦/٨ .

[٢] تأريخ الرسل والملوك : ١٣٦/٨ .

[٣] المَصْنَعُ : ما يُصْنَعُ لجمع الماء نحو البِرْكة والصّهْريج. والمَصنْعة : لغة . والجمع : مصانع . المصباح المنير : ٣٤٨ .

[٤] الميل – بالكسر – عند العرب : مقدار مدى البصر من الأرض ... وعند القدماء من أهل الهيئة ثلاثة آلاف ذراع وعند المُحّدثين أربعة آلاف ذراع ... ويقال للأعلام المبنية في طريقة مكة : أميال ، لأنها بنيت على مقادير مدى البصر من الميل الى الميل . المصباح المنير : ٥٨٨ .

[٥] الرَّكية : البئر . والجمع : رَكايا. المصباح المنير : ٢٣٨ .

بحريـة فـي تـأريخ الحضـارة الإسـلامية. وصـارت تـونس مركـزاً لغـزوات الأمـويين فـي البحـر وفتحـت صـقلية أيـام زيـادة الله الأول ابـن إبـراهيم بـن الأغلب على يد أسد بن الفرات[1].

وكانت عناية الدول في المغرب بصناعة السفن والملاحة لأغراض الحرب والتجارة أكثر من عناية الدول في المشرق . والسبب واضح ، لان إفريقية وبلاد الأندلس يحيط بها البحر والمحيط وتقع في مركز جغرافي يربط شمالي إفريقية باوربا عن طريق الأندلس خلافاً لمعظم دول المشرق الإسلامي . وبلغت عناية الأندلسيين بالأسطول حداً كبيراً، وقيل إن أسطول الأندلس انتهى أيام عبد الرحمن الناصر "إلى مائتي مركب أو نحوها، وأسطول افريقية كذلك مثله أو قريباً منه. وفي عهد هشام بن عبد الملك ولى عبد الله بن الحتحات إفريقية بعد عزل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي "فقدمها سنة ١١٤هـ وبنى جامع تونس واتخذ بها داراً لعمل المراكب البحرية"[2].

وفي بلدان المشرق الإسلامي كان الاهتمام بالملاحة النهرية لكثرة انتشار الأنهار . وكانت تستعمل لأغراض المواصلات والتجارة. وعرفت أنواع من المراكب النهرية اتخذت للهو والزينة وأطلق عليها اسم (الحرّاقات)، ومفردها (حرّاقة) . وشاع استعمالها في عهد الأمين لميله إلى اللهو والعبث. واشتهر عنه أنه أمر بعمل خمس حرّاقات في دجلة "واحدة على صورة الأسد وواحدة على صورة الفيل ، وأخرى على صورة العُقَاب،

---

[1] انظر ، المقدمة : ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

[2] مآثر الإنافة : ١/١٥٥ .

وأخرى على صورة الحّية، وأخرى على صورة الفرس. وأنفق في عملها أموالاً جمة"[١]. وكثرت أنواع المراكب والسفن التي استخدمت في دجلة والفرات. وربما كانت دجلة أكثر اتساعاً لأنحدارها البطيء وعرضها ومرورها ببغداد جارية من الموصل الى شمال البصرة . ومن أنواع المراكب والسفن السُمَاريّات كما ذكر ابن الجوزي ويقتضي أن مفردها سُمَاريّة وهي ضرب من السفن النهرية . ووردت في كتاب الديارات[٢] باسم السُمَيْريّة ويقتضي جمعها على سُمَيْريّات .

وكثر استخدام السماريات في دجلة حتى أنها أحصيت في أيام أبي أحمد الموفق فكانت ثلاثين ألفاً قُدّرَ من كَسْب ملاحيها كل يوم تسعون ألف درهم[٣]. وذكر الشابشتي[٤] أنواعاً أخرى من المراكب منها: الزّلال وهي ضرب من السفن النهرية الصغيرة السريعة، والطّيارات ، والزَّبازِب .

الألعاب ووسائل التسلية

انتشرت في القرن الثاني الهجري أنواع مختلفة من الألعاب ووسائل التسلية منها ما كان معروفاً من قبل ومنها ما كان محدثاً في القرن الثاني الهجري . وبعضها يعتمد على الرياضة البدنية كسباق الخيل والصيد والقنص وبعضها الآخر يعتمد على الرياضة العقلية كالشطرنج .

---

[١] مآثر الإنافة : ١/٢٠٥ .

[٢] ص : ٤٤ .

[٣] مناقب بغداد : ٢٤ .

[٤] الديارات : ٣٨ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .

ومن الرياضات القديمة المعروفة في الجزيرة العربية سباق الخيل في الحلبة . ووردت عنه أخبار عديدة في العصر الجاهلي. ويظهر أن الأمويين عنوا بهذا النوع من الفروسية ونظموا حلبات السباق وعملوا على انتشارها ويحكى عن الوليد أنه كان "مغرى بالخيل وحبها وجمعها، وإقامة الحَلْبة. وكان السندي فرسه جواد زمانه . وكان يسابق به في أيام هشام. وكان يقصر عن فرس هشام المعروف بالزائد"[١]. وأقام الوليد حلبة الخيل في رصافة دمشق، وذكر أن ما كان يشترك فيها من الجياد قد بلغ ألف قارح[٢].

ومن الألعاب التي شاعت في القرن الثاني الهجري الشطرنج. وهي لعبة كانت معروفة قبل ذلك ووقف منها من حيث الجواز وعدمه مواقف متباينة ، وروي عن عبد الله بن عباس أنه كان يحسن الشطرنج ويلعب به ، وروي مثل ذلك عن عبد الله بن الزبير[٣]. أما التابعون فقد ذكر عن سعيد بن المسيب أنه كان يلعب بالشطرنج، وروي عن سعيد بن جبير أنه كان يلعب بالشطرنج استدباراً أي دون النظر إليه ؟! ومن التابعين الذين ذكر أنهم لعبوا بالشطرنج دون تحرج محمد بن سيرين، والشعبي برواية أبي هريرة[٤]. ولفقهاء العامة في اللعب بالشطرنج ثلاثة مذاهب ذكرها الماوردي في كتابه الحاوي، أحدها: وهو مذهب مالك أنها حرام. والثاني: وهو مذهب

---

[١] مروج الذهب : ٣/٢٣٠ .

[٢] القارح : ما أكمل خمس سنين من ذي الحافر وانتهت أسنانه . انظر ، المصباح المنير : ٤٩٦ .

[٣] التلمساني : أنموذج القتال ٣٦ ، ٣٧ .

[٤] أنموذج القتال : ٣٧ ، ٣٨ .

أبي حنيفة أنها مكروهة كراهة تغليظ يوجب المنع وإن لم تبلغ مبلغ التحريم. والثالث: وهو مذهب الشافعي أنها ليست بمحرمة[١]. وجوز الشافعي اللعب بالشطرنج بشروط وهو مما انفرد به. وروى الشيخ أبو عبد الله محمد بن شاكر القطّان في مصنفه في فضائل الشافعي: ان الشافعي لم يكن يرى بها بأساً وكان يلعب بها على استدبار[٢]. وذكر بعض الشافعية في جواز اللعب بالشطرنج أربع شرائط، وهي: أن لا يلعب بها على الطريق ، ولا في رهن ، ولا يذكر فيها سفهاً، ولا تشغله عن الصلاة[٣]. وحُرّمَ اللعب بالشطرنج والنَّرْد في مذهب أهل البيت عليهم السلام وإن لم يكن على رهن وهو المشهور عند فقهاء الإمامية.

وترتبت على الشطرنج عند اللاعبين به آداب في كيفية اللعب وأوقاته وشروط اللاعب. منها أنه ينبغي أن يتجنب اللعب بالشطرنج "في وقت الضجر والتعب، وفي حالة الامتلاء والشبع، ويلعبها مع نده وقده ، ولا يلعبها مع من هو فوقه من ذوي الشرف، ولا من هو دونه من الأنذال والأراذل"[٤] أما عن شروط اللاعب فقد حكي عن ابن ماسويه أنه قال "يستحب للاعبها أن يكون بعيد الهمة رشيق اللفظ ، حسن البيان ، قوّالاً للصواب ، سريع الجواب متجنباً مستحقره ، قليل الحلف"[٥].

---

[١] أنموذج القتال : ٤٠ ، ٤١ .

[٢] أنموذج القتال : ٣٥ .

[٣] أنموذج القتال : ٤٠ .

[٤] أنموذج القتال : ١١٥ .

[٥] أنموذج القتال : ١١٥ .

ومن الغريب أن بعض الأطباء ذكروا للعب به فوائد طبية ، فقد نقل أنه حدث طاعون في زمن الرشيد فنصحه يوحنا بن ماسويه باللعب بالشطرنج ، وقال "يا أمير المؤمنين الشطرنج يشفي الأمراض"[١].

وكان الصيد والقنص من وسائل اللهو والتسلية التي مارسها الخلفاء والوزراء والطبقة العليا في الدولة وجرت العادة على صيد الحيوان الذي يحل أكل لحمه. ووردت أخبار عن صيد الحيوانات يحرم أكلها وينتفع بجلدها. وهناك روايات أخرى عن صيد الوحوش كالأسود والنمور والببور وغيرها. ومما يحكى عن الأمين أنه "اصطبح يوماً ، وقد كان خرج أصحاب اللبابيد والحِراب على البغال – وهم الذين كانوا يصطادون السباع – إلى سبع كان بلغهم خبره بناحية كُوثى والقصر ؛ فاحتالوا في السبع إلى أن أتوا به في قفص من خشب على جمل بُخْتي..." [٢].

ومن الألعاب التي شاعت في القرن الثاني الهجري اللعب بالكرة والصولجان. ونسب إلى الرشيد أنه أول "خليفة لعب بالصوالجة والكرة، ورمى النَّشَّاب في البِرْجاس، وأول خليفة لعب بالشطرنج من بني العباس"[٣] وكان للأمين ولعُ بالصوالجة، وأول ما بويع بالخلافة أمر ثاني يوم ببناء ميدان جوار قصر المنصور للعب بالكرة"[٤].

ومن وسائل تسلية الخلفاء إضحاكهم، واختاروا لذلك شخصاً له هيئة مضحكة وخفة حركة اطلقوا عليه اسم (مضحك الخليفة) . وروي عن

---

[١] أنموذج القتال : ١١٥ .

[٢] مروج الذهب : ٤٠٣/٣ .

[٣] تاريخ الخلفاء : ٢٩٥ .

[٤] تاريخ الخلفاء : ٢٩٧ .

الرشيد أنه اتخذ مضحكاً له كنيته ابن أبي مريم المدني "وكان مضاحكاً له محداثاً فكيهاً؛ فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته، وكان ممن قد جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد المُجّان؛ فبلغ من خاصّته بالرشيد أن بوأه منزلاً في قصره، وخلطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه..." [١].

واتخذ بعض الناس التهريج وإضحاك العامة من المشاهدين شغلاً له، وكان يطلق على هؤلاء اسم (السمّاجة) وهم "قوم يحاكون حركات بعض الناس ويمثلونهم في أصواتهم ويظهرون في مظاهر مضحكة إيناساً للناس"[٢].

مظاهر من الحياة الاجتماعية

كان أصحاب الذمة وهم اليهود والنصارى والمجوس الذين دخلوا في ذمة المسلمين يمثلون فئة من الفئات الاجتماعية في القرن الثاني الهجري ، ووقف منهم الأمويون والعباسيون مواقف متباينة ما بين التشديد والمسامحة ؛ فبينما أمر عمر بن عبد العزيز في كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم بأن "لا تهدم كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولح المسلمون عليه ولا تحدث كنيسة ولا بيت نار"[٣] نلاحظ أن الرشيد يُشدد عليهم ويأمر في سنة ١٩١هـ

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ٣٤٩/٨ .

[٢] الديارات : ٣٩ .

[٣] تأريخ الرسل والملوك : ٥٧٢/٦ .

بهدم الكنائس بالثغور[١]، ويكتب إلى السندي بن شاهك يأمره "بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم"[٢].

ومثل (العّيارون) طبقة اجتماعية ظهرت في ظروف الحرب بين الأمين والمأمون وكانوا ينصرون الأول على الثاني ولهم زي وهيئة خاصة بهم في القتال، وذكر عن زهير بن المسيب – أحد قادة المأمون – أنه صمد نحوه خلق من العّيارين "وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم التبابين[٣] والميازر[٤]، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص وسموها الخُوَذ ، ودَرَقاً[٥] من الخوص والبواري قد قُيّرتْ وحشيت بالحصى والرمل..."[٦]. وكانوا يوصفون بأنهم "أصحاب مخالي الحجارة والآجرّ وخُوَذ الخُوص ودَرَق الحُصُر والبَواري ورماح القصب وأعلام الخِرَق وبوقات القصب وقرون البقر"[٧].

---

[١] تأريخ الرسل والملوك : ٣٢٤/٨ .

[٢] تأريخ الرسل والملوك : ٣٢٤/٨ .

[٣] التُّبَّان : شبه السراويل . وجمعه : تبابين ؛ والعرب تذكره وتؤنثه . المصباح المنير : ٧٢.

[٤] المِئْزر والإزار : بمعنىً احد ، وجمعه : المآزر . انظر المصباح المنير : ١٣ .

[٥] الدَّرَق : التروس من جلود بلا خشب ولا عَقَب . واحدته : دَرَقة ، والجمع : أدراق ودِراق. ورجل دارق: ذو دَرَقٍ . والتُّرْس : واحد التروس ، وهو من السلاح المتوقى بها. انظر الافصاح : ٦١٤ .

[٦] مروج الذهب : ٤١١/٣ .

[٧] مروج الذهب : ٤١٦/٣ .

والحمامات من المرافق العامة الاجتماعية التي شاعت وانتشرت في المدن العربية ولاسيما مدينة بغداد، وكانت في مدينة بغداد وحدها مئات من الحمامات الصغيرة والكبيرة، العامة والخاصة. وربما بالغت بعض المصادر مبالغة كبيرة في عددها وأوصلتها إلى ستين ألف حمام ، "وأقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر : حمّامي ، وقيّم ، وزبّال ، ووقّاد، وسقّاء. يكون ذلك ثلثمائة ألف رجل"[١].

وكانت مجالس الخلفاء ومجالس اللهو والشراب ، والهدايا، والأعراس، والأفراح من المظاهر الاجتماعية المتميزة في القرن الثاني الهجري. ووصف لنا علي بن يعقوب بن داود عن أبيه مجلساً للمهدي قائلا "بعث إليَّ المهدي يوماً، فدخلت عليه ، فإذا هو في مجلس مفروش بَفْرش مُوّرد متناه في السرور على بستان فيه شجر ورؤوس الشجر مع صحن المجلس، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأوراد والأزهار من الخوخ والتفاح ؛ فكل ذلك مورد يشبه فرش المجلس الذي كان فيه ..." [٢].

وجرت العادة على أن يلبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر في مجالس الشراب ، وذكر عن بعضهم أنه "جلس يوماً للشرب وأحب الخلوة فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم وجلس معهم ، وقد هُيئ المجلس ولبسوا الثياب المُصّبغة . وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر"[٣].

---

[١] مناقب بغداد : ٢٤ .

[٢] تأريخ الرسل والملوك : ١٥٨/٨ .

[٣] الفخري : ٢٠٥ .

ولم يبلغ أحد من الخلفاء مبلغ الأمين في مجالسه الخاصة بما توافر فيها من مظاهر الزينة والبذخ والإسراف . ووصف لنا أحد الأدباء من بني العباس وهو ابن المعتز مجلساً من مجالس الأمين ، قال "بُني للمخلوع [للأمين] مجلس لم تر العرب والعجم مثله . قد صور فيه كل التصاوير وذُهّب سقفه وحيطانه وأبوابه ، وعلقت على أبوابه ستور معصفرة مُذهّبة وفرش بمثل ذلك من الفرش؛ فلما فرغ من جميع أسبابه وعرف ذلك اختار له يوماً ، وتقدم بأن يُؤْمر الندماء والشعراء بالحضور غدوة ذلك اليوم ليصطبحوا معه، فلم يتخلف أحد، وكان فيمن حضر أبو نؤاس ، فدخلوا فرأوا أُسّاً [بناًء] لم يروا مثله قط ولم يسمعوا به، من إيوان مُشّرف فائح فاسح يسافر فيه البصر وجعل كالبيضة بياضاً ثم ذُهّب بالإبريز [الذهب الخالص] المخالف بينه باللُّلازَوَرْد [معدن يتخذ للحلي ومنه الشفاف الأزرق الضارب الى حمرة وخضرة] ، ذي أبواب عظام، ومصاريع غلاظ ، تتلألأ فيها مسامير الذهب قد قمعت رؤوسها بالجوهر النفيس، وقد فرش بُفرش كأنها صبغ الدم، مُنقّش بتصاوير الذهب وتماثيل العِقْيان [الذهب الخالص]، ونُضّد فيه العنبر الأشهب والكافور المُصّعد وعجين المسك وصنوف الفاكهة والشمّامات والتزايين....." [1].

ومن الدعوات المشهورة عرس زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور على الرشيد . وكان المهدي قد عزم على تزويج ابنه بأم جعفر ابنة أخيه "فاستعد لها ما لم يستعد لأمرأة قبلها من الآلة وصناديق الجوهر والحلي والتيجان والأكاليل وقباب الفضة والذهب والطيب والكسوة .

---

[1] طبقات الشعراء : ٢٠٩ .

وأعطاها بدنة عبدة ابنة عبد الله بن يزيد بن معاوية امرأة هشام [البدنة ما يلبس من الثياب على البدن] . ولم ير في الإسلام مثلها ومثل الَحّب الذي كان فيها. وكان في ظهرها وصدرها خطان ياقوت أحمر وباقيها من الدرّ الكبار الذي ليس مثله. ودخل بها الرشيد في محرم سنة ١٦٥هـ في قصره المعروف بالخُلْد. وحشر الناس من الآفاق وفرق فيهم من الأموال أمر عظيم؛ فكانت الدنانير تجعل في جامات فضة، والدراهم في جامات ذهب [الجلم: الكأس] ونوافج المسك [النوافج: مفردها النافجة:وعاء المسك]، وجماجم العنبر والغالية في بواطي زجاج [الجماجم ، واحدتها الجمجمة: قدح من خشب] ويفرق ذلك على الناس ويخلع عليهم خِلَع الوَشْي المنسوجة وأوقد بين يديه في تلك الليلة شمع العنبر في أنوار الذهب [الأنوار ، واحدها النور: إناء كالإجّانة يصنع من صُفْر أو حجارة] ..." [١].

ومثلها كان زفاف ابنة الحسن بن سهل إلى المأمون. وقدرت زبيدة ما انفق في هذا العرس ما بين خمسة وثلاثين ألف ألف درهم وسبعة وثلاثين ألف ألف درهم؟ يضاف إلى ذلك ما كان يجري في كل يوم على نيف وثلاثين ألف ملاح[٢] من أصحاب القوارب والسفن الصغيرة لإظهار البهجة والاحتفال في نهر دجلة.

وبلغ إسراف بعض الوزراء والأمراء في مجالسهم وحفلاتهم الخاصة حداً كبيراً. ويروى عن الحسن بن سهل الذي استوزره المأمون بعد أخيه الفضل أنه تلقى المأمون وأصحابه وعساكره وأمراءه وهم منحدرون الى فم

---

[١] الديارات : ١٥٦ ، ١٥٧ .

[٢] الديارات : ١٥٨ .

الصلح بواسط ، فقام في إنزالهم قياماً عظيماً "وبذل من الأموال ونثر من الدُّرر ما يفوق حّد الكثرة ، حتى أنه عمل بطاطيخ من عنبر وجعل في وسط كل واحدة منها رُقْعة بَضْيعة من ضياعه ونثرها فمن وقعت في يده بِطّيخة منها فتحها وتسلم الضيعة التي فيها"[١].

ويروى عنه أيضاً أنه دعا المأمون يوماً إلى مجلسه، وفرش له حصيراً منسوجاً من الذهب ونثر عليه ألف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ[٢].

وأمثال هذه الروايات عديدة إلا أنها لا تخلو من المبالغة وينبغي للباحث أن يتنبه الى أمثالها ونظائرها في كتب التأريخ، وهي تدل على مظاهر البذخ والإسراف عند الخلفاء والوزراء والأمراء والطبقة الحاكمة عامة ، فقد بالغ البرامكة – مثلاً – في كثرة العطايا والهبات من الأموال عيناً وعقاراً وبساتين ، وذكر عن يحيى البرمكي أنه كان يعد صُرَراً، في كل صُرّة مائتا درهم يدفعها إلى المتعرضّين له[٣]. وقيل عن أحد وزراء المأمون – وهو أحمد بن يوسف – أنه أهدى إليه هدية في يوم النيروز قيمتها ألف ألف درهم[٤].

مظاهر من الحضارة المادية

تعددت مظاهر الحضارة المادية في القرن الثاني الهجري وتنوعت أشكالها؛ فمن أنواع الطعام والشراب إلى أنواع الملابس والأزياء ، والدور والقصور ، والعطور ، ومواد التجميل ، والورود والرياحين ، والزينة والآلات

---

[١] الفخري : ٢٢٢ .

[٢] الفخري : ٢٢٢ .

[٣] الفخري : ٢٠١ .

[٤] الفخري : ٢٢٥ .

وغيرها وهو ما يعكس لنا صورة واضحة من صور المجتمع في القرن الثاني الهجري . ومروراً ببعض الأمثلة القليلة يمكن أن نستدل بها على الرأي القائل بأن التغير الحضاري لا يشمل العقول والنفوس حسب وإنما يشمل أيضاً الاتجاهات المادية للمجتمعات .

ومن المظاهر المادية تهادي بعض المأكولات الغريبة أو النادرة ، وكان ذلك يقتصر على الخلفاء والوزراء والأمراء والطبقة الغنية المسرفة . وربما بعث بعض الخلفاء بكتب إلى عمالهم على الأمصار يطلبون منهم إرسال ما يخطر ببالهم من طعام غريب أو فاكهة نادرة ، وقد يبعث العمال الى الخليفة زلفىً بأن يهدوا إليه ما يجدونه في أمصارهم وولاياتهم من طعام أو شراب أو فاكهة غريبة في نوعها أو حجمها . من ذلك ما كتبه بعض العمال الى هشام بن عبد الملك : "قد بعثت الى أمير المؤمنين بسلة دُرَاقن"[1]، فكتب اليه هشام : "قد وصل الدراقن فأعجبنا فزد منه واستوثق من الوعاء". وكتب الى عامل آخر قد بعث بكمأة كبيرة: "قد وصلت الكمأة وهي أربعون ، وقد تغير بعضها ، فاذا بعثت شيئاً فأجد حشوها في الظرف بالرمل حتى لا يضطرب ولا يصيب بعضها بعضاً"[2].

ومن أمثلة المبالغة في الطعام والإطعام ما ذكر عن أبي مسلم صاحب الدعوة العباسية أنه كان "يخبز كل يوم في مطبخه ثلاثة آلاف

---

[1] الدُّرَاقن : الخوخ . المعجم الوسيط : ٢٨٠/١ .

[2] تاريخ مختصر الدول : ١١٦ .

قِرْف[١] ويطبخ مائة شاة سوى البقر والطير وكان له ألف طباخ وآلة المطبخ تحمل على ألف ومائتي رأس من الدواب"[٢].

وعني معظم الخلفاء بمأكلهم ، ويحكى عن المهدي أنه كان يعمل له ألوان من المخ المعقود بالسكّر[٣]. وأصبح الطبيخ فناً ودونت فيه كتب ورسائل . ومما ذكره ابن النديم[٤]: كتاب الطبيخ لإبراهيم بن المهدي ، وكتاب الطبيخ لأبن ماسويه.

ومن مظاهر الحضارة المادية الملابس والأزياء. ويبدو أن المنصور قد فكر في توحيد عامة الناس في زي مشترك، ففي سنة ١٥٣هـ أمر بأن يؤخذ الناس بلبس القلانس[٥] الطوال المفرطة الطول. واحتال الناس لها بالقصب من داخل لتطويلها ، ما جعل أحد الظرفاء من الشعراء – وهو أبو دلامة – أن يقول:[٦]

وكنا نُرجّي من إمام زيادةً فزاد الإمامُ المصطفى في القلانسِ
تراها على هام الرجال كأنها دِنانٌ يهودٍ حِللُّت بالبرانسِ

---

[١] القِرْف : القشر ، ويعني به الرغيف من الخبز .

[٢] تاريخ مختصر الدول : ١٢١ .

[٣] تاريخ الخلفاء : ٢٧٥ .

[٤] الفهرست : ٣٧٨ .

[٥] القَلَنْسُوة وتجمع على قلانس : لباس الرأس . وهي من الألبسة المشتركة بين الرجال والنساء، تلبس غطاءً للرأس إما وحدها وإما تلف حولها العمائم . انظر: صلاح حسين العبيدي ، الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي ص١٣٦ (بغداد وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٠) .

[٦] تأريخ الرسل والملوك : ٤٣/٨ ، وتاريخ مختصر الدول : ١٢٣ .

وسميت هذه القلانس (الدَّنّية) لشبهها بالدنّ . وكانت تعمل من كاغد ونحوه على قصب ويعمل عليها السواد[١].

امتازت طبقات من المجتمع بلباس معين ، وكان متولي دار الطراز أيام الرشيد يحيى البرمكي أول من لبس شاشية من الكُتّاب[٢].

ونسب إلى جعفر بن يحيى أنه أول من عرّض الجربانات[٣] وحشاها بالقطن، وعللوا ذلك بأن يحيى كان طويل العنق "وما زال الناس ينسبونها إلى ابن برمك، يقولون: جُربّانات برمكية"[٤]، فقال أبو نؤاس :

ذاك الوزير الذي طالت عَلاوتُه كأنه ناظرٌ في السيف بالطُّول

ومن المظاهر المادية التي شاعت في حضارة القرن الثاني الهجري استعمال أنواع مختلفة من العطور منها ما كان يصنع محلياً، ومعظمها كان يجلب من الأمصار الإسلامية أو من البلدان المتاخمة لها. وأصبحت صنعة العطر فناً وألفت فيها بعض الرسائل لبيان صنعته وأنواعه ومزاياه، ومما ذكره ابن النديم[٥] في هذا الباب: كتاب العطر، ألف ليحيى بن خالد،

---

[١] شذرات الذهب : ٢٣٤/١ .

[٢] الوزراء والكتاب : ٢٦١ ، والشاشية : نوع من لباس الرأس جاء أسمها منسوباً الى الشاش في ديار ما وراء النهر . انظر ، الملابس العربية الإسلامية في= =العصر العباسي ص١٠٠. ومضمون رأي الباحث في أن العرب أخذوا هذا النوع من لباس الرأس من الأعاجم منذ عهد المعتصم مردود بالنص المذكور ، فقد عرف هذا النوع من اللباس قبل المعتصم .

[٣] الجُرُبّان أو الجِرّبان : مدخل الرأس من القميص.

[٤] الوزراء والكتاب : ٢١٥ .

[٥] الفهرست : ٢٧٨.

وكتاب العطر لإبراهيم بن العباس، وكتاب العطر للكندي، وكتاب كيمياء العطر للكندي أيضاً.

المصادر والمراجع

١. ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء – المطبعة الوهبية – القاهرة ١٣٠٠هـ .
٢. ابن أبي حجلة التلمساني (شهاب الدين أحمد بن يحيى المغربي):أُنموذج القتال في نقل العوال – تحقيق زهير أحمد القيسي – وزارة الثقافة والإعلام – بغداد ١٩٨٠ .
٣. ابن الأكفاني (محمد بن إبراهيم) : نُخب الذخائر في أحوال الجواهر – تحقيق أنستاس ماري الكرملي – القاهرة ١٩٣٩ .
٤. ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن) : مناقب بغداد – تحقيق محمد بهجة الأثري – بغداد ١٣٤٢هـ .
٥. ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : المقدمة – مطبعة التقدم – القاهرة ١٣٢٩هـ.
٦. ابن رسول (الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي) : المعتمد في الأدوية المفردة – تحقيق مصطفى السقا – مطبعة الحلبي – القاهرة ١٩٥١م.
٧. ابن الطقطقا (محمد بن علي بن طباطبا) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية – دار صادر – بيروت بلا تاريخ .
٨. ابن العبري (غريغوريوس الملطي) : تأريخ مختصر الدول – المطبعة الكاثوليكية – بيروت ١٩٥٨م .
٩. ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب – القاهرة ١٣٥٠هـ–١٣٥١هـ .
١٠. ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : الإمامة والسياسة – مطبعة الحلبي – القاهرة ١٩٦٣ (هذا الكتاب يشك في نسبته الى

ابـن قتيبـة) – صـححه وعلـق عليـه محمـد إسـماعيل الصـاوي – المطبعة الإسلامية – القاهرة ١٩٣٤م.

١١. ابن المعتز (عبد الله) : طبقات الشعراء – تحقيق عبد الستار أحمد فراج – دار المعارف (ذخائر العرب) – القاهرة ١٩٧٦م .

١٢. ابـن النـديم (أبـو الفـرج محمـد بـن أبـي يعقـوب إسـحاق) : كتـاب الفهرست – تحقيق رضا تجدد – طهران ١٩٧١ .

١٣. أمين آل ناصر الدين: الرافد (معجم لغوي للإنسان والحيوان والطير والهوام وكل ما في السماء والأرض) – وقف على طبعه وضبطه على أصله نديم آل ناصر الدين – مكتبة لبنان – بيروت ١٩٧١م .

١٤. البغدادي (عبد القاهر بن طاهر) : الفَرْق بين الفِرق – بيروت ١٩٨٠م .

١٥. التنوخي (أبو علي المُحّسن بن علي) : نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة – تحقيق عبود الشالجي – دار صادر – بيروت ١٩٧١–١٩٧٣م .

١٦. الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : كتاب التبصر بالتجارة – تحقيق حسن حسني عبد الوهاب – المطبعة الرحمانية – مصر ١٩٣٥م.

١٧. الجرجاني (أبو الحسن علي بن محمد) : التعريفات – الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٧١م .

١٨. الجهشياري (أبو عبد الله محمد بن عبدوس) : الوزراء والكُتَاب – تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي – الحلبي ، القاهرة ١٩٤٨م .
١٩. حسين علي محفوظ : قاموس الموسيقى العربية – وزارة الإعلام – بغداد ١٩٧٧م .
٢٠. الحسيني الموصلي (أبو محمد عبد الله بن فخر الدين) : سوانح القريحة في شرح الصفيحة – نشرها صباح محمود محمد ضمن كتاب دراسات في التراث الجغرافي العربي (من ص١١١ الى ص١٤٤) – وزارة الثقافة والإعلام – بغداد ١٩٨١م .
٢١. خليفة بن خياط :تاريخ خليفة بن خياط تحقيق سهيل زكار – دمشق ١٩٦٨م.
٢٢. الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن أحمد) : مفاتيح العلوم – المطبعة المنيرية – القاهرة ١٣٤٢م .
٢٣. الدميري (كمال الدين) : حياة الحيوان الكبرى – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة ١٩٦٣م .
٢٤. الرازي (محمد بن أبي بكر عبد القادر): مختار الصحاح – دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٧٩م .
٢٥. السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): تاريخ الخلفاء – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – مطبعة السعادة – القاهرة ١٩٥٢م .
٢٦. الشابشتي (أبو الحسن علي بن محمد) : الديارات – تحقيق كوركيس عواد – بغداد ١٩٦٦م .

٢٧. الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم) : الملل والنحل – تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل – مؤسسة الحلبي – القاهرة ١٩٦٨م .
٢٨. الصوفي (عبد الرحمن بن عمر) : كتاب العمل بالاسطرلاب – تصحيح محمد عبد المعيد خان – دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد الدكن – الهند ١٩٦٢م .
٢٩. طاش كبرى زاده (المولى أحمد بن مصطفى): مفتاح السعادة ومصباح السيادة – بعناية شرف الدين أحمد – دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد الدكن – الهند ١٩٧٧م .
٣٠. الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) : تأريخ الرسل والملوك – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – القاهرة – ١٩٧٩م .
٣١. عبد السلام هارون : نوادر المخطوطات – مجموع بتحقيق عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي – القاهرة ١٩٧٢م .
٣٢. عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى : الإفصاح في فقه اللغة – مطبعة المدني – القاهرة ١٩٦٧م .
٣٣. الفيومي (أحمد بن محمد بن علي) : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير – المكتبة العلمية – بيروت بلا تاريخ .
٣٤. القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف) : أخبار الدول وآثار الأول – بغداد ١٢٨٢هـ .

٣٥. القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف): إخبار العلماء بأخبار الحكماء – مطبعة السعادة – القاهرة ١٣٢٦هـ .
٣٦. القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي): مآثر الإنافة في معالم الخلافة – تحقيق عبد الستار أحمد فراج – الكويت ١٩٦٤م .
٣٧. المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : أ.التنبيه والإشراف – عنى بتصحيحه ومراجعته عبد الله إسماعيل الصاوي – القاهرة ١٩٣٨م ، ب.مروج الذهب ومعادن الجوهر – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – مطبعة السعادة – القاهرة ١٩٥٨م .
٣٨. النووي (أبو زكريا محي الدين بن شرف) : تهذيب الأسماء واللغات – المطبعة المنيرية – القاهرة بلا تاريخ .
٣٩. اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) : تأريخ اليعقوبي – قدم له وعلق عليه محمد صادق بحر العلوم – المكتبة الحيدرية – النجف الأشرف ١٩٦٤م.